
روايات مصرية للجيب
15
الرجل الذى لم يكُنْ
سافارى
Looloo
www.dvd4arab.com

مقــــدمـة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريَة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ الحياة تستمر ..

ـ « لا تيئس وحاول ثانية .. إن الأمر ليس مستحيلاً .. فقط تذكر علم التشريح وحاول من جديد .. »

ـ « منذ جئت إلى (سافارى) وأنا أسمع أن الأمر ليس مستحيلاً .. كأن الطب مجرد هواية يمكن لأى عابر سبيل أن يجيدها لو أراد .. »

ـ « ربما .. لكنك ستكون فى غاية الخجل وقتها .. »

كان البرد المنبعث من جهاز التكييف يقتلنى قتلاً ، بينما أتأمل صورة الأشعة المقطعية على الشاشة ، تلك التى بدت لى ألغازًا لا يمكن فهمها ، وحتى مع إجادتى لعلم التشريح شبه الكاملة ، فإن الأمر يبدو معقدًا حين تتخيل الجسد البشرى وقد تم تقطيعه إلى حلقات كحلقات البصل ..

كنت فى هذه الفترة أعمل فى قسم الأشعة التشخيصية مع طبيب كورى هو (شنج هاو - شيانج) ، وهو من الطراز الصبور (الكونفوشيوسى) إياه ، الذى يؤمن أن (أشجار السرو لا تنمو حتى تصير للرضيع لحية تصل لقدميه) إلى آخر هذا الهراء ، الذى يناسبنى جدًا الآن ..

هل أنا غبى ؟ هل حقًا لا أصلح طبيبًا ؟ لماذا أقابل مشكلة فى كل فرع من فروع الطب ؟ بينما يبدو أن هؤلاء القوم ينعمون بوقت طيب حقًا ؟

كلا .. لست غبيًا .. أعرف هذا وأثق به .. المشكلة هى أن الكثير ما زال ينقصنى ، وهم هنا يملكون الكثير من العلم حقًا .. علم يحتاج إلى آباد كى تتعلمه وتلم به .. ترى ماذا سأفعل وأقول يوم يبدأ فى تعليمى أشعة الرنين المغناطيسى ، أو أشعة انبثاق البوزيترون ؟ إن علم الأشعة زاخر بالتقنيات الجديدة ، ولابد أن الأخ (رونتجن) - مكتشف أشعة إكس - كان سيصاب بنفس حيرتى

وذهولى ، وهو يرى ما صار إليه الصرح الذى وضع أول لبنة فيه ثم مات عام 1923 ..

ـ « سأحاول من جديد .. ولكن كن صبورًا .. »

ـ « سأكون صبورًا .. إن أشجار السرو لا .. »

ـ « أعرف . أعرف .. هذا طحال .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بل هى الكلية اليسرى .. »

ـ « وهذا هو شريان الطحال ؟ »

ـ « بل هو شريان الكلية اليسرى ، ما دام هذا ليس طحالاً .. »

وهنا أنقذنى دوىّ مكبر الصوت .. إنهم ينادوننى .. وكما قلت آنفًا تصر (سافارى) على مناداة الأطباء بمكبر الصوت ، بدلاً من تزويدهم بأجهزة استدعاء ، كأننا فى موقف (السنبلاوين) ولسنا فى وحدة طبية راقية .. لعله ضغط النفقات على الأرجح ..

ـ « دكتور (عبد العظيم) مطلوب فى قسم الطوارئ .. »

لهذا هززت رأسى لمعلمى الآسيوى ، وطلبت الإذن .. ابتسم ابتسامة كونفوشيوسية متسامحة وسمح لى بالرحيل ، عالمًا فى الغالب أننى لن أعود اليوم ، حتى لو استغرقت مهمة الطوارئ خمس دقائق ..

* * *

هناك كان طبيب الطوارئ الروسى (فاريا) ، ومعه اليمنى (أحمد عنان) ، و (أحمد) كما قلت آنفًا هو وجه جديد هنا ، ولسوف يظل وجهًا جديدًا حتى يظهر وجه جديد آخر .. شاب نحيل أسمر له لحية شبيهة بلحيتى إلى حد ما ، ولنفس الأسباب : الحاجة إلى أن يبدو أكبر سنًا . وله علامة مميزة هى أنه يرتدى سلسلة ذهبية غليظة حول عنقه ، وهو ما يضايقنى نوعًا لأننى لا أحب الرجل الذى يرتدى الذهب ، ولا أحب السلاسل عمومًا ..

مهذب جدًا لكنه متحفظ إلى حد ما ، وفى الغالب مفرط الحساسية بحيث تجد شيئًا من العسر فى التعامل معه خشية أن تجرحه وأنت لا تدرى . كان (أحمد) مولعًا بأمراض المناعة الخلوية ، وهى سلسلة معقدة جدًا من الأمراض بعضها يستحيل قراءة اسمه فضلاً عن حفظه ، وكان هذا اهتمامًا غريبًا بعض الشىء .. لابد لهذه الأمراض من طبيب .. لكن طبيبها فى الغالب اهتم بها بحكم الضرورة لا الولع ، لأنها أمراض ليس لها بريق وسحر باقى فروع الطب . إن كل طفل يرغب فى أن يكون ضابطًا عندما يكبر ، وفى ذهنه البذلة الأنيقة والكاب والمسدس ، لكن الطفل الذى يرغب فى أن يعمل بالرقابة الإدارية فهو طفل فريد من نوعه !

كان المشهد فى الطوارئ كما يلى : ثمة مريض إفريقى يتشنج ويصرخ بينما الروسى وممرضتان يحاولون السيطرة عليه وحقنه .. حالة صرع

لاتحتاج إلى عبقرى ليشخصها .. ثمة أربعة أو خمسة مرضى يقيئون دمًا ، بينما امرأة راقدة على المحفة فى حالة صدمة .. (أحمد) وجهه بلون الليمون والعرق البارد على جبهته وقد استند إلى المحفة ، وبدا على وشك الإغماء ..

قال الروسى وهو يفرغ محقنته فى عروق المريض الصارخ :

ـ « إنه مريض .. »

قلت فى ذكاء :

ـ « هذا واضح .. »

ـ « أعنى الطبيب العربى .. قال إنك ستأخذ مكانه فى الطوارئ .. كما ترى لقد انفتح علينا باب الجحيم هنا » .

نظرت إلى (عدنان) وفهمت ما هنالك .. بالطبع لم يتخيل أن يخذله أحد العربيين الوحيدين فى (سافارى) كلها .. أنا أو (بسّام) .. هززت رأسى أن نعم ، وساعدته على أن يقف :

- « هل أنت بخير ؟ »

قال وهو يتأرجح ويغطى عينيه :

- « بخير .. إنها الحمى .. لا أدرى هل الملاريا أم ؟ »

- « لا أعتقد أنها الملاريا .. مادمت تتعاطى أقراص الوقاية منها .. »

وطلبت منه أن يذهب إلى غرفته ووعدته باللحاق به بعد أربع ساعات ، هى الفترة التى بقيت له فى هذا الجحيم الذى لا يلائم المرضى المحمومين كثيرًا كما ترى ..

صاح الروسى وهو يتلقى صفعة وركلة من المريض الإفريقى :

- « أسرع وساعدنا .. أرجو تأجيل هذه العواطف الحارة إلى ما بعد العمل .. »

وهكذا رحل (أحمد) وبقيت فى هذه الفوضى ،

ولن يمر قليل إلا وأتمنـى أن أصاب بالملاريا أنا الآخر ، حتى لو كانت قاتلة ..

* * *

بعد انتهاء ساعات العمل اتجهت إلى غرفة (عدنان) وهى تقع فى نفس الطابق الذى أقيم فيه طبعًا .. لكنها قرب نهاية الممر .. لو استطعت لرسمت لكم كروكيًا يبين تقسيم الغرف فى (سافارى) ، ولوفر علىّ وعليكم هذا الكثير من الوصف الممل ..

المهم أننى قصدت غرفة (عدنان) ، فقرعت الباب ، وكان صوته الواهن المنهك دليلاً على أنه لم ينم تمامًا .. دفعت الباب ودخلت ، فوجدته على الفراش فى أتعس حال ، وجواره صيدلية كاملة من مخفضات الحرارة وأدوية الملاريا ، التى مازالت ـ لحسن الحظ ـ قادرة على أداء دورها فى غرب إفريقيا ، بينما صارت عاجزة فى أغلب بقاع الأرض ..

حييته وسألته :

– « ألم يرك أحد بعد ؟ »

هز رأسه نفيًا وكان الترمومتر (المحرار كى لا يغضب المترجمون) ما زال بين شفتيه ، ثم أشار إلى كى أجلس ، فجلست على حافة الفراش ، وبدا لى المكان مناسبًا لأن أنزع حذائى .. إن قدمى تنبضان ألمًا كالبراكين ، ويبدو أن حجمهما ازداد مرتين ..

بعد دقيقة أخرج الترمومتر وتأمله .. ثم ناولنى إياه :

– « عيناى زائغتان .. هلا قرأته ؟ »

رفعت الترمومتر إلى النور .. تسع وثلاثون درجة ونصف .. سيكون إعداد الشاى فوق رأس هذا الفتى ممكنًا بعد قليل .. تحسست نبضه وجسست جبينه .. نار .. ارتديت حذائى بصعوبة بالغة ، وقلت وأنا أنهض متجهًا إلى الباب :

ـ « لا داعـى لمزيد مـن المـزاح . سـأجد مـن يفحصك جيدًا فأنا لست بارعًا فـى أمـور الحميـات هذه .. »

قال محاولاً تهدئة حماسى المتقشب :

ـ « ليسـت الأمـور بهـذا السوء .. سـأتحسـن سريعًا . »

ـ « ربما .. لكننـا فـى مستشـفى .. مستشـفى كبير متقدم .. إن كان على الأطباء أن يعـانوا فى فراشهم وحيدين فلا نزل القطر ! »

وخرجت من الغرفة متجهًا إلى قسم الحميات ، فكان أن قابلت (آرثر شيلبى) شـخصيًا .. الأسـتاذ الأمريكـى المتبختر .. مـاذا يفعل ؟ يتبخـتر طبعًـا مزهـوًا بنفسـه ، وقد رفـع عويناتـه إلـى أعلـى لتتمسـك بخصلـة أنيقـة من الشـعر الأشـيب علـى جبهته ، وكان يدخن غليونـًا ضاربًا بعرض الحائط كل تعليمات منع التدخين هنـا .. مـن يجـرؤ على

مطالبة (آرثر شيلبى) العظيم بإطفاء غليونه ؟ فلا نزل القطر .. فلا نزل القطر ! برغم أنه لا يعرف (أبوفراس الحمدانى) طبعًا ..

قلت له فى تهذيب :

- « لدينا مشكلة يا سيدى .. ثمة طبيب محموم .. وإننى .. »

بلهجة تمثيلية طوح بذراعيه لأعلى وفتحهما ، وصاح :

- « بالطبع يا بنى بالطبع .. إن المحروم من الخلاص لا يمنح خلاصا .. هذا مفهوم .. »

اقتدته إلى الحجرة ، وكان معه مسماع فبدأ فحص الفتى على الفور ، بطريقته المدققة المتمهلة ، ثم نهض وقال :

- « التهاب رئوى ما زال فى بدايته .. لابد أنه التقطه من أحد المرضى .. آمل أنك لم تصغ إلى صدره ؟ »

ـ « هذا حق .. لم أفحصه قط .. »

ـ « جميل .. خشيت أن تكون فحصته ولم تتبين الأمر .. سننقله إلى قسم الأمراض المعدية ، ونضعه تحت الملاحظة الآن حالاً .. »

قلت معترضًا :

ـ « ألا يمكن أن نعالجه هنا ؟ إن بعض حقن البنسللين سوف .. »

ـ « كله إلا هذا ! »

قالها فى حسم وعصبية وأضاف :

ـ « لا مجال للطب الإمبريقى هنا .. سنعطيه مضادًا حيويًا لكن بعدما نصور صدره بالأشعة ونرتب مزرعة حساسية لبصاقة .. بعد هذا نعطيه مضادًا حيويًا متخصصًا .. »

كان قاطعًا فى كلامه ، لهذا رفعت سماعة الهاتف طالبًا قسم الأمراض المعدية ، وطلبت أن

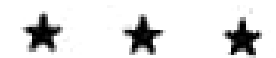
يعدوا فراشًا للضيف الجديد ، وبعد عشر دقائق كان أكثر السيناريو الذى اقترحه (شيلبى) قد نفذ .. الحق أنه لبارع كالعادة ، لأن أشعة الصدر أظهرت التهابًا قصبيًا مبكرًا ، ولم يكن الفتى قد عرف أنه يسعل بعد .. أعطوه مضادًا حيويًا إمبريقيًا حتى تظهر نتيجة المزرعة .. وإمبريقى هذه ليست سبة .. إن معناها (على أساس الخبرة وليس على أساس علمى) ..

ظللت جوار الفتى حتى اطمأننت أنه نام ، وأن حرارته انخفضت ، وأنه أسلم جسده لساعات راحة كان أحوج ما يكون لها .. بالله ما أعذبها من ساعات ! وبرغمى حسدته ! المشكلة هى أننى لا أمرض أبدًا هنا .. فى كل صباح أبحث فى جسدى عن علة ما تبقينى فى الفراش ، وأملأ بها الدنيا صراخًا لكننى لا أجدها أبدًا ! والمشكلة الأخرى أن (سافارى) آلة قاسية لا ترحم .. وهى لا ترفق بالتروس الكسالى أو المرهقة .. بل هى

تتخلص منها بكل بساطة .. إن الطرد هين تمامًا على هؤلاء القوم ..

عدت لغرفتى منهكًا مرهقًا .. الفراش يهتز بى من التعب .. هنا رحت أتخيل أن ما يهزنى هما ذراعا أمى ، وأنا بعد طفل برىء عزيز نظيف وادع ناعم .. إنها تغنى بصوت رقيق ، والفراش يهتز .. يهتز ! لا خوف من الغيلان .. إن ماما ستطردها جميعًا ..

لماذا نُمنح كل الحنان ونحن فى سن لا تسمح بفهمه ؟ ولماذا نُحرم منه حين نحتاج إليه ؟ لماذا لا نشعـ .... خخخخخخخخ !!



٢ ـ انتقام سريع ..

مع الصباح كان موعدى مع يوم جديد من العمل الشاق فى قسم الأشعة .. قابلت (برنادت) هناك ، وكانت تدلل طفلاً يحاول جراح الأعصاب أن يحقن شريانه السباتى بصبغة ما .. وهى مهمة عسيرة ومن الخير ألا تراها لو لم تكن تعرفها من قبل ..

كورت أنفها بأسلوب التشنيكة المعتاد ، وصاحت حين رأتنى :

- « هاى (علاء) .. إنه ذلك الورم القديم المعروف » .

هززت رأسى ولم أجد ما أقول ، ودخلت إلى حيث كان معذبى الكورى ينتظرنى نافد الصبر بالمزيد من الأحاجى .. وقررت أن يمر اليوم بأى

شكل كان ، على أن أعود صديقى اليمنى فى نهايته ، وهو بالتأكيد قد تحسن بما يكفى الآن ..

لو لم يتحسن الالتهاب الرئوى ، فأية أمراض تتحسن إذن ؟

* * *

دخل (أبراهام ليفى) الغرفة الباردة ، وبالطبع تظاهر بأنه لم يُشده لوجودى هناك خلف منصة التحكم فى جهاز الأشعة المقطعية ، وراء الحاجز الزجاجى .. إن علاقتنا بعد موضوع ذباب (تسى تسى) إياه صارت بسيطة جدًا .. أنا أنوى أن أحطمه وهو ينوى ألا يعطينى الفرصة .. علاقة (من يتمكن من طرد من أولاً ؟) .. لهذا لم يوجه لى كلامًا واتجه إلى الطبيب الكورى وهمس ببضع كلمات .. من الواضح أن المريض الذى نفحصه الآن مصاب بورم فى قاع المخ يضغط على التصالب البصرى .. وهو ورم يسبب نوعًا

خاصًا من فقدان البصر.. هذه من اللحظات التى يتداخل فيها عمل طبيب أمراض العيون مع جراح الأعصاب .. كان الكلام همسًا فلم أسمعه لكنه طبعًا مجموعة من التوصيات ..

رحت أدندن بصوت مسموع بإحدى أغنيات (أم كلثوم) الوطنية التى لا يفهمها الكورى طبعًا « إلى فلسطين طريق واحد .. يمر من فوهة بندقية .. »(*) ، لكن (ليفى) يفهم العربية جيدًا كأغلب مواطنيه .. وتظاهر بأنه لا يسمع مشاغبتى تلك وواصل الكلام .. تحمست أكثر ورحت أقرع المنضدة على الإيقاع ، وأهزّ رأسى فى استمتاع : « يمر من فوهة بندقية .. يمر من فوهة بندقية .. » نظر لى شذرًا ثم انصرف ..

سألنى (شنج هاو) معاتبًا :

- « لماذا تغنى بهذا الصوت العالى ؟ كدت لا أسمع حرفًا مما يقوله الرجل .. »

(*) كلمات (نزار قبانى) ولحن (محمد عبد الوهاب) ..

ـ « أنا شاب .. ولابد للشباب من بعض المرح كما تعلم .. »

ـ « إن أشجار السرو لا تنمو ... »

ـ « أعرف .. أعرف .. صدقنى ! »

مشاغبة بسيطة مهذبة لكنها جعلتنى أشعر بسرور غير عادى ، وواصلت الدندنة بصوت خفيض ، بينما صوت هدير الجهاز يتعالى تقطعه أصوات اللقطات المختارة .. وأخيرًا أستطيع أن أرى الورم هناك فى قاع المخ ، يتصل بالغدة النخامية .. يبدو ـ والله أعلم ـ أننى صرت قادرًا على قراءة هذه الألغاز ، وكأن التعود قد أحيا خلايا ما فى عقلى .. خلايا مهمتها فهم الأشعات المقطعية وتفسيرها ..

وهكذا رحت أفسر ما أراه للطبيب الكورى ، الذى بدا عليه بعض الرضا ، وهز رأسه مؤمنًا على ما أقول :

- « أنت تتعلم بسرعة .. هذا واضح .. »

- « ربما كنت جاهلاً لكنى لست بطىء التعلم أبدًا .. »

ثم سألته بعد دقائق بلهجة عابرة ، كأننى لا أهتم بالأمر :

- « ماذا كان الإسرائيلى يقول لك ؟ »

- « كان يطلب بعض المعلومات عن التقنية التى نستعملها مع هذا المريض .. إنه عائد بعد قليل » .

وهنا تذكرت أن (ليفى) يعمل وحده فى عيادة العيون اليوم ، لأن معاونيه ليسا موجودين ، والأستاذ الأسبانى العظيم ، (شافيز) ليس موجودًا هذه الأيام .. إنه فى إجازة فى مسقط رأسه .. لا أدرى ما الذى ولد الفكرة فى ذهنى ، لكنى كنت أداريها هناك من زمن ، وفجأة خرجت إلى السطح .. وصارت تلح على بشكل غير مسبوق ..

هو ذا (ليفى) يعود إلينا .. يتخذ مقعدًا خلف الكورى ، ويلهث من فرط الجهد الذى بذله فى العودة سريعًا .. يريح ذقنه على كتف الكورى ليتأمل الشاشة بشكل أدق .. الكمبيوتر يسترجع الصور السابقة من ذاكرته ، فيشير إلى الشريحة التى تظهر الورم بجلاء .. يسأله (شنج هاو) :

ـ « متى تقومون بالجراحة ؟ »

ـ « غالبًا غدًا .. إن جراح الأعصاب هو من سيجريها لا نحن .. لكنى أريد أن أكون عليمًا بكل شىء .. »

هنا وجدت أن الحين قد حان .. أزحت مقعدى للوراء ونهضت ، وإزاء نظرة الكورى المتسائلة قلت :

ـ « معذرة .. لكنى بحاجة إلى بضع دقائق .. يجب أن أعود مريضًا ما .. »

رفع حاجبيه على الطريقة الكورية التى تعتبر

قهقهة بالنسبة لهم ، وهز رأسه بما معناه أنه يمكننى الانصراف ، لكن يجب ألا أتأخر ..

ـ « أحمق ! »

سمعتها من (ليفى) بالعربيـة إذ أدرت ظهرى واتجهت للباب .. وهى تلك الطريقة المألوفة لدى الشباب ناقصى التهذيب ، حين يتكلمون دون أن ينظروا إليك ، لدرجة أن تحسب أنك واهم وأن هذه السبة لم تُلَق أصلاً .. لكننى التقطت الكرة وقذفتها له على الفور ..

ـ « وغد ! »

قلتها بنفس الطريقة دون أن أنظر للوراء ، وغادرت الغرفة .. ومشيت عبر ردهات (سافارى) مغتاظًا بعض الشىء ، لكنى مسرور لأننى رددت الصفعة فى نفس اللحظة ..

طبعًا كل هذه تصرفات طفولية غير جديرة بالأطباء .. نوع من حرب الديوك عن بعد ، لكنها

السبيل الوحيد لى كى لا أهشم رأسه وأقضى بقية حياتى فى سجن كاميرونى .. وإننى لعلى ذلك قدير لو تركت لنفسى العنان ..

ومشيت حتى وصلت إلى مقصدى ..

اللافتة على الباب الموصد تقول إنها (عيادة أمراض العيون) ..

* * *

شاعرًا بنشوة التواجد وحيدًا فى وكر خصمى ، سرنى أنه لا يوجد عمال ولا ممرضات .. لا يوجد سوى الفراغ والصمت .. مشيت وحدى أتأمل الأجهزة هنا وهناك .. خارطة (سنيلن) الشهيرة على الحائط، برموزها الشبيهة بحدوات الجياد .. مرايا فى كل مكان .. إلخ ..

توجد أجهزة عرفت بعضها مثل المصباح الشقى والفايزون ومنظار قاع العين ، بينما عجزت عن تبين أجهزة أخرى .. بِمَ أبدأ ؟ إن المكان

مفتوح لى كقلب صديق .. ليس على سوى أن أبدأ وبعدها ..

واتجهت إلى المصباح الشقى ، وكان موضوعًا على منضدة تسمح للطبيب والمريض بأن يريحا نقنيهما على جانبيه ، ويتقابل وجهاهما .. أحدهما يحدق فى طبقات عين الآخر .. ليس على سوى أن أقلب هذه المنضدة الثقيلة ليتهشم كل شىء ..

* * *

« دكتور (أبراهام ليفى) .. لقد كانت هذه الأجهزة الثمينة عهدتك .. وكنت تعرف أنه ما من ممرضة أو عامل فى الغرفة ، وبرغم هذا تركتها ولم تحكم إغلاقها فى وجه المتسللين » .

سيقول (ليفى) وهو موشك على البكاء :

ـ « كنت فى قسم الأشعة أشرف على فحص

ورم يا سيدى .. ما جال بذهنى أن هناك من يهشم هذه الأجهزة .. »

ـ « لكنه حدث .. وقد تسبب إهمالك فى خسارتنا تلك الأجهزة الثمينة .. ولو كان هذا منزلك لاستوثقت بعناية من إغلاق الباب .. لقد كلفت وحدة (سافارى) الكثير يا دكتور (ليفى) ، ويبدو أنك لم تترك لنا مناصًا من القرار الوحيد الممكن أن نتخذه .. »

* * *

انتهيت من طرد (ليفى) من خيالى ، ثم قررت أن أبدأ بتنفيذ مشروعى الجميل .. لقد وعدته أننى سأعاقبه يومًا ، وأنا لم أخلف فى حياتى وعدًا ولا وعيدًا .. المهم أن أنتهى بسرعة قبل أن يرانى أحد أو ...

أو ...

وهنا شعرت بشىء غريب يعبث هناك فى قشرة

مخى .. الأنا العليا كما يقول علماء النفس .. الضمير .. تذكرته الآن .. إن عندى واحدًا وهو لا يهمد أبدًا ولا ينوى أن يتركنى على ما يبدو ..

تكلم ضميرى وكان قاطعًا حادًا كالعادة كقاض لا يرتشى : أنت على خلاف مع الإسرائيلى ، وهو قد آذى قومك كثيرًا .. هذا مفهوم .. لكن ما ذنب هذه الأجهزة غالية الثمن فى خلافكما هذا ؟ ما ذنب المرضى البؤساء الذين تنقذ هذه الأجهزة أبصارهم كل يوم ؟ ما ذنب وحدة (سافارى) التى تضم أطباء مجتهدين من كل العالم ؟

للأسف يا (علاء) أنت تنحدر فى خصومتك إلى مستوى طلاب المدارس الابتدائية ، الذين يسكب الواحد منهم الحبر على كراس زميله فى أثناء (الفسحة) كى يراه يُعاقب .. كنت أحسبك أرقى من هذا .. كنت أحسبك أذكى من هذا .. كنت أحسبك أوسع خيالاً من هذا .. وحسب ما أعرفه عنك ، أنت قادر على تدبير حيل أكثر جمالاً .. حيل لا تؤذى الآخرين ..

قلت لضميرى فى ضيق : لست واسع الحيلة كما تظن .. هـذه أفضـل فـكرة تفتق عنها خيالى فـى الفترة الأخـيرة .. إلا إذا كنـت تفضـل أن أدس لـه ثعبانًا سامًا فى حجرته ، أو أخفى بعض أمبولات المورفين فى خزانته .. وهى بدورها ليست حيلاً أكثر رقيًا ..

قال لى فى خبث (وللمرة الأولى ألقى ضميرًا خبيثًا) : لماذا لا يكون الجزاء من جنس العمل ؟ هذه قاعدة قديمة معروفة ، ومن الخير أن تعيد تطبيقها ..

الجزاء من جنس العمل ؟ صـبرًا .. إن الإلهـام يعود إلى ، ويبدو أن لدى فكرة لا بأس بها أبدًا ..

وهكذا تنـازلت ـ دون أسـف كبير ـ عن فكرة التخريب ، وبدأ خيالى ينسج لى مأزقًا أكثر جمـالاً ورقيًا ..

فقط أحتاج إلى نصف ساعة كى أرتب كل شىء .

* * *

تأكدت من أن العلبة فى جيبى ، واتجهت إلى جهاز الهاتف الداخلى ، وطلبت قسم الأشعة .. نظرت حولى فى حذر كى أتأكد أنه ما من واحد هناك .. وانتظرت ملهوفًا سماع الجرس ..

أخيرًا جاء صوت من يسأل عن المتكلم ، فغيرت صوتى .. إن بعض الخنف والحشرجة كفيلان بتأدية المهمة :

ـ « أنا د. (إدجار فريدمان) .. هل د. (ليفى) عندكم ؟ »

ساد الصمت ، وانطلقت من الهاتف مقطوعة قصيرة من تلك الموسيقا (الصينية) المزعجة ، ثم جاء صوت (ليفى) الأخنف قليلاً يسأل عما أريد ..

طبعًا لم يكن هناك طبيب بهذا الاسم ، لكن من الوارد أن يكون .. لهذا كان على استعداد لأن ينصت ويصدق ، فقلت له بذات الصوت :

ـ « أنا أتحدث من الغرفة المعقمة (5) .. ثمة مشكلة هنا .. هل لنا أن نطمع فى مجيئك ؟ »

ـ « هل لى أن أعرف شيئًا عنها ؟ »

فى لهجة خطيرة قلت :

ـ « سيدى .. لو كنت أعرف كيف أشرح لما اتصلت بك .. إنها تتعلق بالعيون وكفى .. »

يبدو التردد فى صوته قليلاً ، ثم يقول فى تململ :

ـ « ليكن .. عشر دقائق وأكون عندك .. »

ووضعت السماعة ، واتجهت إلى الغرفة (5) المذكورة فتأكدت من أن بابها مفتوح ، وأنه ـ لحسن حظى ـ ليس هناك عمال ولا ممرضات ولا مرضى .. والحقيقة هى أن هذه الوحدة لم تعمل قط حتى اليوم ، لكن (ليفى) لا يعرف ..

الآن نعد المسرح للجريمة التالية ..

* * *

٣ ـ إنهم يقولون .. ماذا يقولون ؟

الغرفة المعقمة Gnotobiotic Room في الأساس تخص قسم أمرض الدم ، وهي نوع من الغرف التي يوضع فيها مرضى الفشل النخاعي ، أو مرضى سرطان الدم الذين تم تدمير نخاع عظامهم توطئة لزرع نخاع جديد . بمعنى آخر : يكون هؤلاء المرضى في حالة انعدام تام للمناعة ، ويمكن لعطسة من رضيع قليل الأدب أن تقتلهم كأنك رميتهم بالرصاص .. لهذا تكون هذه الغرف معقمة بالكامل .. لا ميكروبات في أرضيتها ولا هوائها ولا معداتها ، وفي الوقت ذاته يتم تطهير جلد المريض وأمعائه ..

باختصار هذه الغرف هي المكان المقدس الخالي من الميكروبات الذي حلم به (ابن الهيثم) كثيرًا ولم يجده .. تعرفون طبعًا قصته مع الخليفة الذي

أراد أن يبنى مستشفى لكنه لا يعرف أين يبنيها ، وكان تجربة العالم العربى العظيم هى أن بعثر قطعًا من اللحم فى أرجاء المدينة ، وانتظر يومًا .. ثم تفقّد قطع اللحم .. المكان الذى لم تتعفن فيه قطع اللحم صار هو المكان الأنسب للمستشفى .. إن (ابن الهيثم) لم يكن يعرف الميكروبات ، لكنه بذكائه الحاد أدرك أن المكان الذى يظل فيه اللحم سليمًا هو المكان الأصحّ للمرضى .. ولم نكن طبعًا نأمل أن يعثر على مكان خال من الميكروبات لأن هذا ـ ببساطة ـ مستحيل ، لكنه استطاع أن يقلل الضرر إلى أقصى حد !

استطاعت وحدة (سفارى) أن تحصل على ست غرف من هذا الطراز ، لكن إجراءات التعقيم لم تبدأ بعد .. ولم يجربها أى مريض حتى الآن .. إلا أن شرحًا تعليميًا قد قُدّم لصغار الأطباء وأنا منهم ، وبالطبع لا يعرف (ليفى) أى شىء عن هذا الشرح بحكم عدم الاختصاص . إن الغرفة

الواحدة تكلف مبلغًا مخيفًا من المال ، خاصة بالنسبة لنظام عزل الهواء والمراحل المختلفة التى يمر بها طاقم التمريض حتى يلقى المريض .. وهو مشهد لا بد أن يذكرك بقصة (سلالة أندروميدا) لـ (كريشتون) لو كنت قرأتها(*) .

انتظرت بعيدًا حتى رأيت السيد (ليفى) قادمًا ، يهرول وقد فتح معطفه كأنما يمثل دورِ طبيب مهم فى فيلم سينمائى .. وكان المقبض مغلقًا لكنه غير موصد ، فعالجه ودخل ، وبالطبع أغلقه وراءه .. وهو بهذا أحمق بالطبع لأن هذه المقابض لا تفتح من الداخل .. بل هى تعتمد على عملية إلكترونية معقدة لا تتم إلا حين ينغلق بابان على المريض . والحقيقة هى أن (ليفى) صار الآن فى غرفة معزولة بين بابين موصدين .. غرفة طولها متران وعرضها متر واحد ، وعليه ـ لو كانت الأجهزة تعمل جيدًا ـ أن يمر بالمرحلة الأولى من التعقيم ، قبل أن ينفتح الباب الأول ..

(★) قدمناها فى روايات عالمية للجيب رقم (15) .. وهى من أهم روايات الخيال العلمى لهذا القرن .



انتظرت بعيداً حتى رأيت السيد (ليفى) قادماً ،
يهرول وقد فتح معطفه كأنما يمثل دور طبيب ..

صفرت بفمى فى براءة ، وابتعت عن المشهد ..
لن يمر وقت طويل حتى يدوى الكثير من الصراخ والعويل ، ولا أحب أن يرانى أحد هنا حين يحدث هذا ..

* * *

بعد ما أنهيت عملى جلست أتناول الغداء مع (برنادت) فى الكافتيريا ..

قالت وهى تتأملنى فى فضول :

ـ « هل سمعت ما حدث لـ (أبراهام) اليوم ؟ »

ـ « هل لدينا (أبراهام) هنا ؟ »

ـ « هلم يا (علاء) ولا تتذاكَ على .. أتحدث عن (أبراهام ليفى) .. منافسك اللدود » .

قلت فى كبرياء :

ـ « ليس لى منافسون .. أنا أختارهم بنفسى .. ولكن ماذا حدث له ؟ »

حكت لى ما لم أكن أعلمه ، وهو أن السيد (ليفى) قد دخل إلى غرفة التعقيم ، ولم يستطع مغادرتها .. فسألتها فى حيرة :

- « تعنين الـ Gnotobiotic Room »

- « طبعًا .. عم تحسبنى أتكلم ؟ »

وواصلت قصتها المثيرة التى تتلخص فى أن (ليفى) حاول الخروج مرارًا ودق الباب والجدران ، وحتى تلك اللحظة ظل متمالكًا أعصابه .. سيمر أحدهم حتمًا بعد دقائق ويفتح له .. ثم سمع أزيز الذباب ..

- « ذباب ؟؟؟ »

نعم .. ذباب .. ذباب غريب المنظر وجده يطير فوقه وأمامه ومن حوله فى ذلك المكان المغلق ، ونظر البائس - ما زلنا مع (برنالدت) - إلى الجدار فوجد عبارة تقول : « هذا ذباب (تسى تسى) أيها التعس ! »

هنا أصابته هستيريا فظيعة .. إن ما يعرفه عن ذباب (تسى تسى) ليس دقيقًا لكنه مخيف بما يكفى .. راح يصرخ ويركل الجدران ويعوى كالذئب .. ثم فعل الشىء الذى كان سيفعله أى واحد آخر ..

نزع حذاءه ووجه عدة ضربات قوية إلى النافذة الزجاجية ، ولم تفلح هذه .. من ثم بحث حوله ليجد عتلة حديدية لا يدرى أحد من وضعها هنا ، من ثم التقطها وهوى على الزجاج يهشمه .. الزجاج الثمين الذى كلف الوحدة الكثير .. ومع الزجاج تهشمت أشياء كثيرة ، ثم واصل محاولاته وهشم أجزاء من الباب .. كل هذا والذباب لا يكف عن الأزيز حوله محاولاً النيل منه ..

لم يفلح سوى فى إحداث ضجة هائلة ، وفى النهاية جاء من سمع الصخب وأنقذه .. كان منهارًا تمامًا غارقًا فى العرق ، وراح يردد دون انقطاع :

ـ « سوف أقتله ! سوف أقتله ! »

سألت (برنادت) فى براءة :

ـ « يقتل من ؟ »

ـ « لا أدرى .. وإن كان شىء ما مألوف يلوح فى هذه القصة .. ألا ترى هذا معى ؟ يخيل إلى أنك تعرف من الذى يريد (ليفى) قتله ... »

ـ « ليست لدى أدنى فكرة .. أكملى القصة .. »

ابتلعت آخر قطعة فى طبقها وقالت :

ـ « لا شىء بعد هذا إلا أن الذباب الذى وجدوه لم يكن (تسى تسى) بل ذبابًا منزليًا عاديًا بريئًا .. و(باركر) مصرّ على أن الفتى تصرف بجهل وحماقة ، وكلفنا الكثير .. كان بإمكانه أن يتماسك أكثر وينتظر أول عابر سبيل ينقذه .. »

ـ « وهل من صميم عمل (ليفى) أن يعرف الفوارق الدقيقة بين ذبابة وأخرى ؟ »

ـ « قل هذا لـ (باركر) ولا تقُله لى .. إنه

مصمم على أن أى طبيب فى (سافارى) يجب أن يكون خبيرًا فى الذباب .. وهم الآن يبحثون احتمالى فصل (ليفى) من الوحدة أو إرغامه على دفع تكاليف الخسائر .. »

بدت علىّ حسرة حقيقية .. من الممكن أن يقع أى منا فى هذا الموقف .. إن الذباب يتشابه على كل حال .. هنا قالت (برنادت) فى خبث :

ـ « بالطبع اتجهت كل أصابع الاتهام إلى شخص واحد هنا .. شخص اتهم (ليفى) من قبل بإدخال ذباب (تسى تسى) إلى مصر .. »

قلت فى جزع كمن سمع هرطقة مخيفة :

ـ « إننى أطالب برفع البصمات .. أطالب بمضاهاة خطى بالخط المكتوب على الجدار .. »

عقدت ساعديها وأصدرت قهقهة قصيرة وقالت :

ـ « لا تكن سخيفًا .. أنت تعرف أن من كتب الكلمات استعمل يده اليسرى .. »

ـ « وكيف لى أن أعرف ؟ »

قالت فى ثبات وعيناها لا تفارقان وجهى :

ـ « أنت تغدو وسيمًا حين تتظاهر بالبراءة .. وفى الحقيقة لا أخفى عليك أننى أعجب بالرجل الذى يعرف كيف ينتقم .. ينتقم بنظافة وذكاء دون لكمات ولا (بلطجة) ولا عبارات سباب .. إن الأمر أقرب إلى دعابة عملية صبيانية قليلاً لكنها لعبة موفقة ، وقد سددت هدفًا لاشك فيه .. »

ثم نظرت إلى ساعتها ، وقالت إنها يجب أن تلحق بنوبتجيتها حالاً .. جلست وحدى فى الكافتيريا أفكر .. مر بى طبيب هولندى يحمل علبة من الشراب ، وبدا كأنما سر لأنه وجد أحد الحمقى حين أراد واحدًا .. قال لى فى ضيق :

ـ « هل تشرب هذه بدلاً منى ؟ إننى لا أشرب هذه الأشياء وأكره أن أرميها .. »

كانت علبة من الكولا الباردة ، فتناولتها شاكرًا

وفتحتها ، وأفرغتها فى جرعتين .. حقًا إنها لمنعشة بعد عناء اليوم .. وجلست وحدى شاعرًا بالكثير من الرضا .. من المفيد دائمًا أن يحتفظ المرء بعلبة بها عشرون ذبابة منزلية حية كما فعلت أنا أمس .. كنت أنوى استعمالها فى الانتقام ، لكنى لم أكن قد حددت الوسيلة بعد .. و(ليفى) الذى كانت (على رأسه بطحة) تلقي الرسالة سريعًا .. ما دام هذا ذبابًا وما دام هذا كمينًا . فإن نوع الذباب (تسى تسى) بلا أدنى شك .. والآن يجب أن أتماسك وأستجمع قدرتى على (الاستهبال) إلى أقصى حد .. إن يومًا عصيبًا من الأسئلة ينتظرنى ، وخاصة حين يدعونى (بارتلييه) إلى مكتبه .. متى ؟ فى السابعة مساءً طبعًا .. ظننت هذا قد صار مفهومًا لكم الآن ..

سيحاولون كثيرًا لكنهم لن يبرهنوا على شىء .. أعتقد أننى قمت بالجريمة الكاملة فعلاً ..

لو طردوا (ليفى) فإن انتقامى قد تم ، ويمكن نسيان هذا الأمر .. أما لو بقى فإننى لم أنته منه بعد .. لقد وعدته بانتقام يرد فى الأساطير ، ويجعل عقاب (برومثيوس) و(تنتالوس) نوعًا من التدليل(*) .. وأنا أفى بوعدى دائمًا..

* * *

مازال وقت لا بأس به قبل السابعة .. إن أحدًا لم يطلبنى بعد ، لذا قررت أن أعرج على (بسام) فى قسم الحروق وأصطحبه إلى صديقنا التونسى المريض .. لم أره منذ ساعات طويلة ، وإن كنت أعرف جيدًا أنه بخير .. لقد اتصلت بالقسم منذ ساعتين وعرفت أنه على ما يرام ..

كان (بسام) قد انتهى من مهمته العصبية ، وبدا مضعضعًا بما يليق بالعمل لمدة ثمانى ساعات

(★) عقاب (برومثيوس) و(تنتالوس) أمور تحدثنا عنها كثيرًا ، وإن كنت نسيتها يمكنك الرجوع إلى كتيبى (فانتازيا) السابع والثامن ..

فى قسم الحروق ، فمضينا إلى قسم الأمراض المعدية ..

كان (عدنان) فى خير حال جالسًا فى الفراش ، يطالع رواية عربية ما ، وقد بدا على وجهه انتعاش ونضارة حسدته عليهما .. فجلسنا على طرف الفراش ، ورحنا نمازحه وانطلقت الدعابات بالعربية تطرد كل هذا الجو الفرنسى الخانق من حولنا .. كان يخشى أن نصاب بالعدوى ، لكنى قلت له إن هذه الأشياء لا تحدث إلا للآخرين فقط .

- « أنت مدعو إلى طبق من (المقرونة بالحوت) من تطيبيى حين تشفى .. »

هذه كانت من (بسام) طبعًا ، و (المقرونة بالحوت من تطيبيى) معناها (المكرونة بالسمك من إعدادى) ، وهى كما يقول (أكلة عزيزة بارشا فى تونس) .. أى إنها أكلة محبوبة جدًا هناك .. لا أعرف من أين ينوى العثور على سمك فى (سافارى) لكنه بالتأكيد يعرف ما يتكلم عنه ..

ـ « أنا لا أعرف هل هـذه الأكلـة جيدة أم لا ، لكنى واثق أن التقلية ستجعلها كابوسًا »

وحكيت لهم ـ فلا أسرار مع صديقىّ العربيين ـ ذلك المقلب الذى دبرته لـ (ليفـى) فضحكا كثيرًا ، وإن كان (بسام) قد أنذرنى :

ـ « حذار فالفتى لا يسامح ولا ينسى .. ولتكونـن لدغته القادمة أكثر شراسة ..»

ـ « أنا كذلك لا أنسى .. وعلى كـل حـال هنـاك احتمال لا باس به فى أن يطرد .. »

قال (أحمـد عدنـان) وهـو يداعب لحيتـه فى حكمـة :

ـ « مستحيل أن يطـردوه .. إنـه مهم للوحدة باعتبـاره الإسرائيلى الوحيد بهـا ، وهـو يعطيهـا صـورة يريدونهـا مـن عـدم التعصـب .. خاصـة بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين .. ولـو طـردوه لانفتحت عليهم أبواب الجحيم »

قال (بسام) مؤمناً على الكلام :

- « إنه يلعب دور (الفلسوخة) كما تقولون في مصر .. إن (ليفي) سيبقى لا لشيء إلا لأنه إسرائيلي ، ولو فعلها إنجليزي أو فرنسي لطرد فورًا »

بدا لي المنطق معقولاً فقلت مستسلما :

- « على كل حال سنكون حذرين .. نحن ثلاثة ضد واحد .. لو جرب شيئًا سنكون له بالمرصاد .. » قال (عدنان) بطريقته الهادئة الرصينة :

- « لن يفعل الآن .. فهو في وضع حساس .. سينتظر حتى تنسى هذه القصة ثم يحاول .. »

وظللنا صامتين بعض الوقت ، حتى جاءت الممرضة الإنجليزية الشرسة تطردنا ، وكان معها حق على كل

حال .. إن زيارة المريض فن له آدابه و(الإتيكيت) الخاص به .. وقد أرهقنا الفتى كثيرًا ..

* * *

وفى السابعة مساءً - طبعًا - دعيت إلى مكتب (بارتلبيه) ، وكان (باركر) هناك للأسف .. و(بارتلبيه) يهاب (باركر) كثيرًا برغم أنه يرأسه إداريا .. ولهذا السبب يتظاهر بالكثير من الحزم والغلظة حين يكون مع (باركر) فى مكانٍ واحد .. إنه يوبخك ، ولو تواجد معك وحده لبكى معك أو ربت على كتفك .. بينى وبينكم تشاءمت حين رأيت (باركر) هذا جالسًا كغراب البين جوار الفرنسى الطيب ، وابتلعت ريقى .. إن ساعة عصيبة لتنتظرنى هنا ..

المهم ألا يفلت لسانى ، وألا أذكر شيئاً عن الكتابة باليد اليسرى ، وكل هذه الأخطاء التى يرتكبونها دون حذر فى كل التحقيقات ..

★ ★ ★

٤ـ أين ؟

دعونى إلى الجلوس فجلست (مزجر الكلب) كما يقول (بسلم) ـ وهى الكلمة التى يصر هو على أنها ليست إهانة ـ وقال (بارتلييه) دون أن ينظر لى :

ـ « د (عبد العظيم) .. بالطبع ستنكر أن لك علاقة بأى شىء حدث للدكتور (أبراهام ليفى) اليوم .. »

فى بلاهة تساءلت :

ـ « وهل حدث شىء (للدكتور أبراهام ليفى) اليوم ؟

ـ « ألم أقل إنك ستنكر ؟ دعنى أكن صريحًا معك .. فى المرة القادمة سوف .. لا .. لن تكون هناك مرة قادمة لأننى لن أنتظر وقتها أية تحقيقات ، ولسوف أعتبر أى شىء يحدث له مسئوليتك .. إننا لن

نستطيع إثبات شيء عليك هذه المرة لأنك وغد محظوظ أو وغد ذكى .. لايهم .. وأنا أفضل تبرئة مذنب على برىء لم يثبت جرمه بشكل قاطع .. لكن لتكن كلماتى واضحة جلية .. »

كنت أدافع عن نفسى، ثم وجدت أن هذا سخف .. الرجلان يعرفان إلى درجة اليقين أننى المسئول عما حدث وهو ما يمكن لطفل عمره عامان أن يستنتجه . لا داعى للإصرار السخيف ..

ساد الصمت هنيهة فسألت فى كياسة :

ـ « هل هذا كل شيء يا سيدى ؟ »

ـ « حاليًا .. نعم .. »

بهذه البساطة ؟ لقد فاق الأمر أجمل أحلامى .. نهضت متحاشيًا عينى (باركر) الناريتين ، وفررت من المكان ..

الآن حان الوقت كى أعتصم بحجرتى .. لقد كان يومًا شاقًا مليئًا بالانفعالات ..

لكنى سعيد .. سعيد بحق ..

* * *

وفى الصباح اتجهت إلى قسم الأشعة كالعادة ..
سيظل هذا عملى إلى أن يعطب ترس ما فى آلة
(سافارى) ويطلبون منى أن أذهب هناك .. وقد
اعتدت هذا لكن بعض الأقسام كانت تثير مللى أكثر
من غيرها .. الكل هنا يهاب ويشمئز من عنبر
الحروق أو من حالات غنغرينا الغاز .. لكنى كنت
أفضل العمل هناك بالتأكيد على عيادة الأطفال
ـ لو لم تكن (برنادت) فيها ـ أو المعمل الكريه
حيث تنتظرنى (هيلجا) الشرسة لتؤكد لى الحقيقة
الخالدة التالية : « لقد كنت وكان أصدقائى مخطئين
حين حسبونى لابأس بى » .. وهى تتمنى طيلة
الوقت لو أسديت لها خدمة وسقطت ميتًا ..

قررت لولا أن أعرج على (عدنان) المريض لعله

بحاجة إلى شىء فى هذه الساعة المبكرة من اليوم .. اتجهت إلى قسم الأمراض المعدية وحييت الممرضة الإنجليزية الصارمة الجالسة على (الكاونتر) فى مدخل القسم ، كما هززت رأسى للطبيبة السلوفانية الحسناء والتى تتفقد التذاكر .

ـ « هل أستطيع أن أخدمك ؟ »

سألتنى الممرضة الإنجليزية بلهجتها الراقية التى تملأ الفم بحق ، فقلت فى مرح :

ـ « لا شىء .. شكرًا .. سألقى نظرة على الفتى ثم .. »

ـ « أى فتى ؟! »

ضحكت فى مزيد من المرح :

ـ « صديقنا اليمنى .. المصاب بالتهاب رئوى .. »

تبادلت نظرة عابرة بلا معنى مع الطبيبة ، ثم قالت فى سماجة :

ـ « حقًا لا أدرى عم تتحدث أيها الشاب .. لكن لو كنت تمزح فى هذا الوقت المبكر من اليوم .. »

ـ « معاذ اللّه أن أمزح .. ماذا دهاكم ؟

واتجهت إلى الباب الزجاجى ، وفتحته ودلفت إلى الداخل .. سمعتها تحتج فلم أبال كثيرًا ..

وفى الفراش الذى كان (عدنان) يحتله أمس وجدت رجلاً إفريقيًا فى حالة سيئة .. لا أدرى بِمَ هو مريض ، لكن الخراطيم كانت تخرج وتدخل من وإلى كل فتحات جسده ، وكان غائبًا عن الوعى تمامًا ، وجواره سمعت هدير جهاز التنفس الصناعى المنتظم الرتيب ..

كانت الممرضة قد لحقت بى ، منتوية خراب بيتى ، فسألتها :

ـ « منذ متى دخل هذا ؟ »

قالت فى عصبية ، كأنما بدأت تضيق بى :

ـ « منذ أسبوع .. إنها ملاريا مخية .. حالة متقدمة منها لو طلبت رأيى »

ودست قبضتها فى خصرها وأردفت :

ـ « تلاحظ أننى لم أعلمك بغلظة ، ولم أسألك عن الحق الذى يسمح لك باقتحام عنبرى واستجوابى بعد ..»

رحت أضرب كفًا بكف .. يا عالم ! أين ذهب الفتى ؟

ودون كلمة أخرى تركتها ، ورحت أتفقد الأسرة واحدًا واحدًا .. لا شىء .. هل تحسن فخرج ؟ لكن المرأة المتسلطة تزعم أن هذا المريض هنا منذ أسبوع ..

استدرت لها وعدت أقول فى صبر :

ـ « لحظة .. لحظة يا أختاه .. أنه تلك الطبيب اليمنى المهذب .. د (شيلبى) أدخله بنفسه منذ يومين ، وكنا هنا معه عصر أمس حين جئت وطردتنا .. »

أشرق وجهها الصارم بضحكة النصر :

ـ « هكذا ترى أنك مخطئ .. أنا لم أكن هنا أمـس .. ولو كنت هنا عصر أمس ، لما كنت النوبتجيـة اليوم .. إن اليوم الـ Shift الخاصة بأمس كانت من نصيب مس (هيلين شيفر) النيوزيلندية » .

حتى هذه اللحظة كنت موقنًا أن هنك سوء فهم ما .. لقد خرج الفتى فى وقت ما بين عصر أمس وصباح اليوم ، والمرأة لا تعـرف .. رفعت كفى مستسلمًا وقلت لها :

ـ « على الأقل يمكنك أن تراجعـى التذاكر من أجلى .. »

فى تحدٍ ودون كياسة قالت :

ـ « لا .. سأفعل هذا إذا طلبه الطبيب المسئول .. »

ونظرت مستغيثًا إلى الطبيبة السلوفانية الحسناء ، فتدخلت فى الحديث بإنجليزية أجارك الله منها :

ـ « مشكلة ماذا ؟ مشكلة ماذا يا دكتور .. أنـا أفهم لا شىء »

في صبر رحت أشرح لها القصة من جديد .. وكنت أدرك حاجز اللغة كفيل بجعلى أبدو مجنونـًا في نظرها .. وقد كان .. لقد هزت رأسها في حيرة ، وقالت :

ـ « يمنى هنا لا .. طبيب لا موجود .. آسفة .. سوء فهم يحدث .. »

سوء فهم يحدث ؟ طبيب لا موجود ؟ إنها معلومات بليغة حقًا .. تنهدت مستسلمًا ، ونظرت شذرًا إلى الإنجليزية .. هذه هي مزية أن تكون امرأة .. هذا على الأقل يعفيها من تحطيم أنفها بقبضات الرجال المتحمسين من أمثالى .. لففت مسماعى حول عنقى كحبل المشنقة وغادرت القسم وأنا أتميز غيظًا..

آخر ما سمعت المرأة تقوله بإنجليزيتها المنمقة كان :

- « ولن أسمح لك بتفتيش القسم ثانية إلا بأمر من رئيس الوحدة شخصيًا .. »

* * *

بالطبع واصلت عملى فى قسم الأشعة ، لأن هذه الأمور من الممكن أن تنتظر .. لكنى كنت أشعر بسرور لأن (عدنان) تحسن .. ما دمت لم أجد جثته مغطاة بملاءة ، فهو قد تحسن وغادر المكان ، وليس الأمر عسير التصور .. سأنهى ساعات العمل ثم أبحث عنه ..

وعندما جاءت الساعة الثانية بعد الظهر ، اتجهت إلى حيث كان رئيسى الكورى يفحص بعض الصور التى التقطناها اليوم .. سألته عما إذا كان يبغى شيئًا ، فقال باسمًا :

- « كنت على شىء من العصبية اليوم ، وهذا ما أرجو أن تتخلى عنه غدًا .. إن (كونفوشيوس) يقول : النمر لا يثب مرتين .. أما الإنسان فعليه أن يتحول إلى جندب .. »

بالطبع لم أفهم شيئًا من المثل الذى قاله ، وهو واحد من مئات الأمثال التى يمطرنى بها طيلة اليوم ، ولسبب ما تذكرنى بدعاباتنا السريالية فى مصر : وحش له شارب قابل وحشًا بلا شارب .. إلى آخر هذا الكلام العجيب .. فقلت له فى فتور :

ـ « لن يكون هناك غد »

أنت تفرط فى التشاؤم .. إن الوشق الذى لا يؤمن بالغد يقع فى فخ الـ .... »

« نعم .. نعم .. أردت القول إن هذا هو يومى الأخير فى قسم الأشعة .. ما لم يطلبوا منى البقاء أكثر .. »

طلب منى فقط أن أمر بعد يومين لأساعده فى تنسيق بعض الأشعات المهملة بعدها يطلق سراحى .. وصافحته فى حرارة .. لقد كان رجلاً طيبًا مهذبًا علمنى الكثير ، لكنى متعكر المزاج اليوم حقًا ..

* * *

واتجهت إلى غرفة (عدنان) قرب نهاية الممر فى مسكن الأطبـاء ، وقرعت البـاب .. لا أحد .. قرعته بمزيد من الغلظة فلم يرد أحد ..

قررت أن آكل لقمة ثم أعتكف فى حجرتى ، فاليوم عطلة لى ، وليس على أن أتوقع عملاً ما ما لم يستدعونى عبر مكبر الصوت .. نزلت إلى الكافتيريا ، واتجهت إلى (الكاونتر) لأضع فى صحفتى بعض الخضر المسلوق وشريحتى لحم وبعض الخبز .. ثم ملأت قدحى بقهوة (سافارى) الكريهة الشبيهة بماء غسيل الأطباق ، واتجهت إلى مائدة خاوية أمضغ وألوك وأبلع الأمر الذى لن يستغرق وقتًا طويلاً كما ترى ..

جاء (فاريا) طبيب الطوارئ الروسى ، فاتخذ مقعده جوارى ، وهز رأسه محييًا .. وراح يلتهم ما أمامه فى جوع مفترس .. مشكلة (سافارى) هى أن الطعام غاية فى السوء ثم هو قليل كذلك ! فلو كان هذا الطعام السيئ أكثر قليلاً فلربما ..

قلت له بالفرنسية طبعًا :

ـ « هل عاد لكم ؟ »

رفع رأسه فى تهذيب ، وخداه منتفخان بطعام لم يجد الوقت لمضغه ، وتساءل :

ـ « من ؟ »

ـ « (أحمد عدنان) .. لقد غادر القسم .. »

مال برأسه أكثر نحوى ، وكرر السؤال :

ـ « من بالضبط ؟ »

بصوت أعلى وضيق صدر أكثر قلت :

ـ « (أحمد عدنان) .. الطبيب اليمنى الذى كان معك حين أصابه المرض .. »

هز رأسه وواصل الطعام مغمغمًا :

ـ « لا أعرفه .. »

هنا جن جنونى .. هل أصابهم كلهم العته فجأة ؟

ـ « د (إيليتش) .. أنت كنت تعمل معه ووجدت أن حالته الصحية لا تسمح بالاستمرار ، وطلبت طبيبًا آخر فى مكبر الصوت .. وواصلت أنا العمل معك .. هل نسيت بهذه السرعة ؟ »

نظر لى هنيهة ، ثم قال فى حزم :

ـ « أنا لم أعمل معك فى الطوارئ قط . وما تقوله لا يقرع أى جرس فى ذاكرتى .. »

ـ « إذن أجراس ذاكرتك كلها مشروخة .. لقد كان الحال يومها عصيبًا وكنت أنا من أنقذك من جحيم من المرضى و.. »

قال فى ضيق ونفاد صبر :

ـ « رأيى ببساطة أن الأمر اختلط عليك .. ومن الواضح أنك تستعمل لغة لا تناسبنى .. أنت تجيد



نظر لى هنيهة ، ثم قال لى فى حزم :
ـ «أنا لم أعمل معك فى الطوارئ قط» ..

استعمال الفرنسية فـــى الإهانـــات ولـــن أســـتطيع مجاراتك فى هذا .. لهذا اسمح لى .. »

ودون كلمـة أخرى حمـل طعامــه واتجــه إلــى مائدة فى ركن المكان ..

★ ★ ★

٥ ـ ؟؟؟؟؟؟

بحثت عن (بسام) حتى وجدته .. كان جالسًا فى الاستراحة يشاهد التلفزيـون مـع أحد الأطبـاء الأستراليين ، وقد أمسك بكوب من العصير يجـرع منه جرعات متتابعة ..

جلست وقلت له :

ـ « (بسام) أنا أكاد أجن .. »

ـ « اطمئن .. أنت مجنون بالفعل ، ولن تجـن أبدًا .. إن الميت لا يموت .. »

إنه رائق المزاج ، أمـا أنـا فلو سقطت قطـرة من مزاجى فى المحيط الهادى ، لأفسدت الملاحـة والصيد فيه للأبد ..

ـ « أين ذهب (عدنان) ؟

نظر لى هنيهة محاولاً فهم ما أسأل عنه ، ثم غمغم فى حيرة :

ـ « (عدنان) من ؟ »

ـ « (أحمد عدنان) .. الطبيب الشاب من (صنعاء) .. هل أصبت بالبله المغولى أخيرًا ؟

فكر حينًا ثم جرع جرعة من العصير ، وعاد يرمق التلفزيون وقال بلا اكتراث :

ـ « لا أعرفه .. »

ثم قطب جبينه وقال :

ـ « لا يوجد إلا عربيان فى هذه الوحدة .. أنا وأنت .. منذ متى جاء العربى الثالث ؟ »

نهضت فى حدة كى أغلق التلفزيون غير مبال بصيحة احتجاج من الطبيب الأسترالى ، ووقفت أمام الشاشة ، وقلت فى عصبية متوسلة :

ـ « (بسام) .. أسمع .. لسنا فى الأول من

إبريل ، وليس اليوم عيد ميلادى .. إن الأمر مهم لى حقًا .. الكل ينكر أن هناك (عدنان) وأنه كان مريضًا بالتهاب رئوى ، وأن (شيلبى) قد عالجه .. أرجوك لا تمزح .. إن الأمر مهم لى كما أقول »

بدت الجدية على ملامحه ، وهزّ كتفه هزة من طراز (وددت ـ لو ـ ساعدتك) ثم قال :

ـ « لو كنت تريد أن أقسم لك على المصحف فسأفعل .. أنا لا أعرف ما الذى تتكلم عنه .. ليست عندى أدنى فكرة .. »

هنا صاح الأسترالى بالإنجليزية ، وهو بطبيعة الحال لم يفهم حرفًا مما نقول بالعربية :

ـ « هيه أنت هناك ! يمكنك أن تتجادل بالخارج كما يحلو لك .. لكن افتح التلفزيون ! »

قلت لـ (بسام) وقد بدأت أشعر بغثيان غريب :

ـ « (بسام) .. (بسلم) .. ولكن .. دعنا نرحل من هنا ولنذهب إلى حجرتى .. »

ثم مددت يدى وأعدت تشغيل التلفزيون .. لو كان هـذا الأحمق يستمتع ببرامج التلفزيون الكاميرونى (ليس لدينا طبق فضائى ولا كابل هنا) فهذا شأنه ..

وإلى غرفتــى مشيت ، ففتحت البـاب وأدخلت (بسام) ، ثم مددت يدى إلــى المصحف الموجـود على الكومود جوار رأسى ، وناولته إياه :

ـ « هلم .. أقسم لـى إنـك لاتعرف شيئاً عن الموضوع .. »

فى تردد أمسكه ، وللحظة بدا لى أنه لن يقسم بل سيعترف بالحقيقة .. ثم فى اللحظة التالية قال :

ـ « أقسم بالله العظيم إننى لا أعرف عم تتكلم .. لاحظ أننـى لا أحب أن أجعل المصحـف عرضـة لقسمى .. بل لا أحب أن أقسم أصلاً ، لكنـى مضطر الآن لأن حالتك تبدو سيئة هل تراك اقتنعت ؟ »

أسقط فى يدى .. رحت أجوب الغرفة كالنمر الحبيس أو الكلب المسعور أو الـ .. لا أدرى بالضبط

لكنه يجول مثلى الآن .. إنهم يحاولون دفعى للجنون .. يحاولون ..

ومن جديد حكيت له القصة كلها .. ما عرفته أنا وما أحسب أن الآخرين عرفوه ، وأردفت :

ـ « (بسام) .. إن (أحمد عدنان) معنا منذ زمن .. من قبل أن يحدث ما حدث من هياج الحيوانات .. ألا تذكر هذا ؟ »

قال فى صدق :

ـ « نعم لا أنكر .. بالواقع هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الاسم ! »

للمرة الثانية أسقط فى يدى .. هذا كابوس .. كابوس مريع يأبى أن يتزحزح .. من المؤكد أن جرس المنبه سيدق فى أية لحظة الآن .. ولسوف أضحك كثيرًا جدًا .. نعم سأضحك ..

قال لى بلهجة الحريص على مساعدتى :

- « هل تحب أن تسأل (آرثر شيلبى) فلربما .. »

فى ضيق قاطعته :

- « هراء .. إذا كنت أنت تتكـر الأمـر ، فمـاذا بوسـعه أن يقول ؟ سيقلب شفته السـفلى ويحـاول التنكر فى وقار ، لكنى لن أستطيع أن أجعله يقسم .. لن يقبل مبدأ الشك فى كلامه .. بالمناسبة .. هل موضوع (ليفى) وذباب الـ (تسـى تسـى) حقيقـى أم وهم هو الآخر ؟ »

ابتسم (بسام) فى ذكاء وقال :

- « أما هذا فحقيقى .. الكل سمع بهذا الموضوع ، لكن أحدًا لم يتهمك صراحة »

تنهدت فى راحة .. على الأقل هناك جزء حقيقـى فى عالم الأوهام الذى أحيا فيه هذا .. يومًا ما فى مكان ما يوجد الخلاص ، والإجابـة علـى كل الأسئلة السديمية التى سألنـاها فلـم نتلق إجابة إلا الصدى .. يومًا ما .. لكنى لست صبورًا إلى هذا الحد للأسف ..

هززت إصبعى فى وجهه منذرًا :

ـ « لو اتضح لى أنها دعابة عملية قاسية فسوف .. »

فتح ذراعيه فى عدم تصديق :

ـ « (علاء) .. كل هذا القسم ومازلت تشك ؟ أمرك غريب يا أخى .. هلتذا ترغمنى على اتخاذ موقف عدائى ربما أفهم الآخرين الآن حين اتخذوه .. »

ـ « أنت لا تفهم شيئًا على الإطلاق .. »

وغادرت الغرفة .. تاركًا إياه دون كلمة أخرى وحيدة ..

* * *

واتجهت إلى غرفة (آرثر شيلبى) حيث كان كالعادة جالسًا أمام الحاسب الآلى ، ينقب فى غابة الإنترنت الكثيفة .. رفع حاجبيه منتظرًا ما سأسأل عنه فسألته ..

كلا .. لن أكون مملاً وأعيد سرد الموقف ذاته

عشرين مرة .. لقد حدث ما حدث مع (بسام) بحذافيره و(شيلبى) ـ ببساطة ـ ينكر أننى عرضت عليه أية حالة ، وأن هناك طبيبًا فى (سافارى) أصيب بالتهاب رئوى فى الفترة الماضية :

ـ « لو حدث هذا يا بنى لاتخذت إجراءات أكثر حدة حتى لا ينتشر المرض .. ولربما أبلغت المدير لأن إصابة طبيب بالتهاب رئوى لا يمر بهذه السهولة .. أنا أعرف عملى جيدًا وأعرف أسلوبى فى أدائه .. »

ونظر إلى السقف كأنما يتأمل فى صوفية :

ـ « ب . ص . م . ا . ت ! البصمات .. هل تعرفها ؟ يجب أن يكون الطبيب كالفنان له بصمة فى كل حالة يفحصها .. هل تعرف لوحة (ماتيه) حين تراها ؟ »

ـ « لا .. ولا أعرف (ماتيه) هذا أصلاً »

بدت عليه خيبة الأمل ، وأردف :

ـ « حسن .. ليكن .. إن لـ (آرثر شيلبى) بصمة في كل حالة يراها ، وكلامك لا يحمل بصماتى .. هذا سهل ويمكن لأى طفل أن يتبينه »

فهمت ما يريد قوله لكنى لم أقتنع .. رباه ! إما أننى جننت وإما هم يداعبوننى مداعبة قاسية .. مداعبة قاسية حقًا إلى درجة أنها صارت نوعًا من التعذيب النازى ..

* * *

واتجهت إلى قسم الحاسب الآلى لأواجه الزنجية الثرثارة سليطة اللسان (جرترود) جلست على مقعد هناك مهموما .. فقالت لى :

ـ « ما بالك يا حبوب القلب ؟ تبدو كمن رأى شبحًا » .

ابتسمت في مرارة ، وقلت :

ـ « أحاول البرهنة على أننى لم أر واحدًا .. »

ثم طلبت منها أن تبحث بين المرضى وبين الأطباء عن طبيب يمنى اسمه (أحمد عدنان) ..

ـ « لا أحتاج إلى حاسب آلى لأرد عليك .. ليس لدينا مرضى عرب هنا .. ولا يوجد سوى طبيبين عربيين هما أنت و د. (بو غطاس) .. »

توسلت إليها فى لهجة شبيهة بالبكاء :

ـ « (جرترود) .. أتوسل إليك أن تتأكدى .. »

راحت تداعب الأزرار ببراعتها التى لاتصدق ، وهى تغمغم :

ـ « ليكن .. ليكن .. ما كنت أحسب الأمر بهذه الأهمية لك .. لنر .. (عدنان) .. (عدنان) .. كيف تكتبونها بحروف لاتينية ؟ »

« A.D.N.A.N »

ـ « مفهوم .. مفهوم .. ماذا تحسبنى ؟ أنا لم أحصل على شهادتى بالمراسلة .. لنر .. لنر .. كما قلت لك ليس هناك أى (عدنان) فى قاعدة البيانات »

وعلى الشاشة راحت النافذة تتألق ، وقد كتب عليها بوضوح :

نهاية البحث

السجل غير موجود فى قاعدة البيانات

نهضت حائرًا مترنحًا كما ينهض ملاكم تلقى لكمة خطافية من (محمد على كلاى) فى أوج مجده .. وسألتها بلهجة أقرب إلى البكاء منها إلى الطلب :

ـ « هل قاعدة البيانات هذه تتضمن أوراق الاستخدام ؟ »

ـ « كل شىء يا روحى .. كل شىء .. »

واتجهت إلى الباب شاعرًا برغبة عارمة فى القىء .. لست من هواة القىء ولا أعرف لماذا يحبه الناس ، لكنى للمرة الأولى شعرت بالعصارة تحتشد ثم تتصاعد إلى فمى ..

وقبل أن أتحكم فى نفسى أفرغت معدتى على الأرضية ، وسط صراخها المندهش ، وحرجى البالغ ..

* * *

٦ ـ هل أنا مجنون ؟

فى مكتب المدير :

قلت له وأنا أمسح وجهى بكفى :

ـ « للمرة الرابعة أقسم لك يا سيدى إننى عشت معه ورأيته وكلمته .. لم أره وحدى بل كل من كانوا حولى .. »

لم يرفع (بارتلييه) وجهه نحوى لأنه كان يمهر بعض الأوراق بتوقيعه ، بينما السكرتيرة تقف بجواره تشير إلى أماكن التأشيرات ، فقط قال :

ـ « كنت واهمًا يا (علاء) .. وهأنذا أقول لك إن الفتى لم يكن معنا قط .. فهل أخدعك أنا الآخر ؟ »

تمنيت أن أقول له إننى لا أرى أى مانع فى أن يكون مخادعًا هو الآخر ، وإننى أعتقد أنهم جميعًا

كئبة آثمون لكن ـ للأسف ـ ليس كل ما يتمنى المرء قوله يمكن أن يقال للرؤساء .. وواصل (بارتلييه) شرح وجهة نظره التى لن تقنعنى :

ـ « كل الأوهام تبدو حقيقة مقنعة .. لهذا تستطيع الأوهام أن تجعل ضحاياها يقتلون ويسرقون .. ليست هناك أوهام محايدة أو تبدو وكأنها أوهام ، وإلا ما خدعت أحدًا ، أنت تذكر ذلك الكلام القديم فى طب النفس عن الفارق بين الوساوس والضلالات .. الوساوس يعرف المريض أنها وهم ، ويحاول جاهدًا التحرر منها .. أما الضلالات فيصر المريض على أنها حقيقة ، ويقاتل من أجل البرهنة عليها .. »

قلت فى تحد :

ـ « والضلالات التى يشاركنى الآخرون رؤيتها والتفاعل معها ؟ »

ـ وهم .. أنت رأيت وهمًا وتوهمت أن الآخرين توهموا الشىء ذاته معك .. »

فى غيظ قلت :

ـ « ولكن ما الجدوى ؟ ومانفع هذا الوهم ؟ إن الأوهام ترضى حاجة نفسية ماسة ما .. هناك من يرى فتاة جميلة تحبه لأنه محروم من العلاقات العاطفية .. هناك من يرى الشيطان رأى العين .. هناك من يرى عملاء الـ (كى جى بى) يراقبونه لأنه أعظم علماء الأرض .. كل هذه أمور ترضى حاجة نفسية أو تعبر عن خلل عصابى ما ، ولكن ما الذى يفيده عقلى الباطن من اختلاق طبيب يمنى مريض ؟ »

ـ « ربما هى الوحدة .. أنت بحاجة إلى عرب آخرين من حولك .. »

لم يرق لى هذا التفسير ، ولكنى ابتلعت آرائى .. المشكلة هى أننى أعرف وعيى وأثق به وأعتقد ـ من دون منطق علمى يبرر هذا ـ أننى يوم لجن سأعرف هذا قبل أى شخص آخر .. لقد كان (عدنان)

معًا منذ زمن لا بأس به ، وقد جلسنا معا ، ومزحنا معًا ، ولو كان كل هذا وهمًا فما معنى الوهم إذن ؟ إذن لكان الوجود كله حلمًا نحلمه .. لكنى أعرف أن الواقع هو الواقع .. لاخلط هناك ، ولو ثرثر فلاسفة الإغريق للأبد عن كون الحياة غير حقيقة فلن أصدق - أو أفهم - حرفًا .. لو أن مسمارًا دخل في بطن رجل أحدهم أو انغلق الباب على إصبع قدمه ، لآمن أن هذا الوجود هو الحقيقة المجسدة ..

طلبت الإذن بالانصراف ، فقال لى (بارتلييه) دون أن ينظر أو يفارق الأوراق :

- « عدنى أن تزور د. (جونستون) غدًا .. لا أعنى بهذا إلا أنك مرهق على ما يبدو ..»

وكنت أعرف أنه سيطلب هذا الطلب .. وسيقول ذات الكلمات التى تعنى فى الواقع : « أنت فى طريقك للخبال ،وقد حان وقت سماع كلمة الطب النفسى .. »

★ ★ ★

وكان الطبيب الإنجليزى المهذب جالسًا كما عرفته دائمًا .. إنه جزء لا يتجزأ من المقعد الذى يجلس عليه ، ويخيل إلى أن ردفيه قد تحولا إلى قطعتى خشب بدورهما .. دائما هناك الموسيقا السيمفونية التى تطرد الذباب من الغرفة ، والأريكة الفرويدية العتيدة التى يجعلك النوم عليها تصاب بذعر أكثر منك تسترخى .. إنها تبعث فى ذهنك تداعيات من القرابين الوثنية ، وكأن هناك من سيشق بطنك بالسيف حالاً .

قال لى فى صبر بعدما سمع قصتى :

- « إن أول نقطة فى العلاج هى أن تؤمن أن (عدنان) هذا لم يوجد قط .. هل حقًا تؤمن بهذا ؟ »

- « بالطبع لا .. »

- « وماذا عن كل المحيطين بك ؟

- « أرى أنكم - معذرة لصراحتى - أوغاد كذابون ، ويجب جلدكم بالسياط .. »

ابتسم فى حكمة كأنما العلم لا تهزه هذه الترهات ، وقال :

ـ « هل تريد أن تؤمن أن (عنان) لم يوجد قط ؟ »

ـ « أريد أن أرى بعيونكم وأسمع بآذانكم .. ربما كنتم جميعا مجانين ، لكن اختلافى عنكم سيجعلنى أنا المجنون .. »

ـ « هل قرأت (بلد العميان) التى كتبها (هـ . ج . ويلز)(*) ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « فى هذه القصة وجد البطل المبصر نفسه يعيش فى بلد يزخر بالعميان ، ونتيجة لهذا صار مختلفًا .. مختلفًا إلى درجة أنه بدأ يفكر فى التضحية بعينيه كى ينضم للآخرين ، ولا يظل مختلفًا عنهم .. ولكنه فى النهاية آثر الاحتفاظ بنعمة البصر ، وفر من هذا المجتمع المغلق ضيق الأفق إلى الدنيا الواسعة .. »

(★) قدمناها فى روايات عالمية للجيب ، الكتيب رقم (17) .

نهضت قليلاً ، ونظرت إليه فى عدم فهم :

ـ « لحظة .. المفترض أن تطالبنى بأن أفقد بصرى كى لا أختلف عن الآخرين .. هذا عملك .. لكنى أراك تؤيدنى فى احتجاجى .. »

ـ « أنت لم تخطئ فهمى يا بنى .. »

وأغلق الدفتر الذى كان يدون فيه ملاحظاته ، وقال فى تؤدة

ـ « لا تبدو لى مضطرب العقل ، ولا أستطيع اتهامك بأنك واهم .. أنت مبصر من نوع خاص ، فلا أستطيع مطالبتك بأن تفقأ عينيك .. إن مكانك يا بنى ليس هنا ، ولا أستطيع أن أقدم لك عونًا من ناحيتى .. »

ـ « وتفسير ما أراه ؟ »

ـ « لا أدرى » ـ وأشار إلى رأسى ـ « لكن الخلل ليس هنا .. اذهب وابحث عن التفسير فى مكان آخر ..»

وثبت من على الأريكة فرحًا وكدت ألثمه معانقًا ، لولا ما أعرفه من تحفظه الإنجليزى الذى يدنو من ثقل الظل .. هذا واحد استطاع أن يتحدى (المؤسسة) .. أحضرونى له كى يطهرنى ويعيدنى إلى جادة الصواب ، لكنه يرفض ذلك ، وببساطة يخبرنى أننى قد أكون مصيبًا ، وقد يكونون هم العميان ..

شكرته بحرارة .. هذا رجل شجاع .. رجل يقول الحق مهما بدا سخيفًا ، وغادرت المكان منتشيًا .. أنا لم أجن بعد ..

* * *

لم أعرف أن الأخبار تنتقل بهذه السرعة فى (سفارى) إلا حين قابلت (برنادت) .. كانت خارجة من المعمل بعدما استشارت (هيلجا) فى بعض العينات كالعادة ، فلما رأتنى بدا عليها بعض الحرج .. مدت يدها الرقيقة وأمسكت بمعصمى تقتادنى بعيدًا عن الأسماع ، ثم وقفت وظهرها إلى الجدار ، وتأملت وجهى فى اهتمام ، وتساءلت :

- « هل أنت بخير ؟ »

- « بالطبع .. لم أكن أفضل قبل اليوم .. »

وأدركت من لهجتها أن الأخبار بلغتها بلا فخر .. قالت لى فى رفق :

- « لا أدرى كيف أرتب كلماتى .. لكن دعنى أطلب منك شيئًا واحدًا : لا تصر على شىء حتى لو كنت واثقًا من أنه الصواب .. صدقه لو شئت .. اقتنع به فى سرك .. كن واثقًا منه .. لكن لا تعلنه أبدا .. ولتتذكر أن الاتهام بالجنون أيسر الأشياء على الناس فى هذه الأيام »

وكانت بالطبع تلمح إلى تجربتها الخاصة جدًا مع رؤى قتلى السفاح الكندى .. التجربة التى عاشتها بعد جراحة زرع القرنية إياها .. وقتها قال الجميع إن الطبيبة الكندية الواعدة قد جنت أخيرًا ..

ثم أضافت بلهجة باسمة :

ـ « أنت تعرف أن كل مصحة عقلية فى العالم فيها مريض يعتبر نفسه براد شاى .. لا أحد يعرف سبب رواج هذا المعتقد ولا سر انتشاره الهائل .. ومديرو المصحات العقلية لا يعترضون على أن يكون المريض براد شاى بشرط ألا يضع نفسه على الموقد كلما جاء ضيف للمصحة !

ـ « وأنت تريدين أن أكتم أننى براد شاى ؟! »

ـ « فقط من أجل مصلحتك .. لن تتصور كم من أفكار بلهاء فى أذهان كل منا .. لكن المجتمع يحتم ألا نعلن عن كل شىء نعتقده .. هذا هو ـ فى رأيى ـ الفارق الأساسى ـ ربما الوحيد ـ بيننا وبين المخابيل .. »

يا لها من كلمات رقيقة تعبر بها (برنادت) عن تعاطفها معى . والحق أننى كنت أتخيل كلمات أكثر لطفًا وتصديقًا لى .. براد شاى ؟ ومن قال إن براد الشاى تعس بالضرورة مثلى ؟

قلت لها فى فتور :

ـ « شكرًا .. »

أدركت ما هنالك ، فقالت محاولة تصحيح ما انزلقت إليه (قديمًا قالوا إن اللعاب هو السبب فى كثرة انزلاق الألسن) :

ـ « حاول أن تفهمنى بلا حدة .. لا تكابر .. أنت تعرف جيدًا أننا لا نخدعك ، وكلنا لم نر ما رأيت .. هل كلنا برادات شاى أم أن الأسهل أن تفترض وجود براد واحد ؟ »

ـ « سأفكر فى هذا .. »

هنا سمعت من الغرفة المجاورة ـ غرفة المراقبة للطابق ـ من يقول بالعربية :

ـ « كف عن هذا يا أحمد يا (عدنان) ! »

★ ★ ★

٧ ـ لم يتلاش تمامًا ..

استدرت إلى (برنادت) واتسعت عيناى .. لم أعط نفسى فرصة للفهم ، وهرعت لأرى مصدر الصوت ، بينما هى لم تفهم ما قيل لكنها ميزت حروف الاسم ، وإذا بها تقول فى جزع :

ـ « (علاء) .. لا تندفع .. أرجو .... »

كالإعصار اقتحم الغرفة ، فلا أجد سوى مجموعة من الممرضات الهولنديات .. ثلاث منهن .. وبالطبع كان هناك طبيب تعرفونه جيدًا .. ليس (أحمد عدنان) طبعًا ، بل هو طبيب أمراض عيون يدعى (ليفى) .. (أبراهام ليفى) ..

كان شبه مستند إلى المنضدة وقد أراح ردفه عليها ، وفى يده كوب ورقى من القهوة ، ومن الواضح أنه كان يمضى وقتًا طيبًا حين دخلت .. يبدو



كالإعصار أقتحم الغرفة ، فلا أجد سوى مجموعة
من الممرضات الهولنديات ..

أنه سمع صوتى بالخارج وقرر أن يسلى (البنات) بهذه المزحة .. « أراهنكن أن هذا المصرى المخبول سيقتحم الغرفة الآن وعلى وجهه أغبى نظرة فى التاريخ » .. ورأيت ممرضتين تحاولان جاهدتين كتم الضحكات ، بينما الثالثة أدارت وجهها للجدار وراحت تسعل كى تخفى ضحكاتها ..

هذه إذن جلسة شديدة الإمتاع و(الروقان) .. والمهرج هو خادمكم المتواضع المعترف بالعجز والتقصير .. (علاء عبد العظيم) ..

نظرت لهم شذرًا، وقلت :

ـ « من الذى كان يتكلم بالعربية ؟ »

وهو سؤال سخيف طبعًا ، لأن الصوت صوت رجل طبعًا .. إن اللهجة العربية الخنفاء المسروقة ـ كأى شىء آخر ـ من الفلسطينيين لاتترك مجالاً للشك ، حتى لو افترضنا أن إحدى الممرضات تجيد العربية وتتعاطى هرمونات الذكورة ..

قال (ليفى) فى برود دون أن ينظر لى ، ودون أن يغير من جلسته النصفية هذه :

ـ « هل تعانى من مشكلة ما ؟ لم يتحدث أحد بالعربية هنا .. »

نظرت له مغتاظًا ، وقلت فى لهجة أردتها مهينة لكنها خرجت ثائرة :

ـ « ماذا تفعل هنا ؟ ألم تُطرد بعد ؟

ـ « لسوء حظك .. لا .. هل سعادتكم تملكون أسبابًا قوية لطردى ؟ »

كان الاستمتاع المتوحش يكاد يثب من عيون الممرضات .. ولولا صرامة القوانين هنا لأخرجت كل واحدة منهن كيسًا من الفيشار لتتسلى بمشاهدة هذا الفيلم الممتع ..

ـ « سمعت أنك تخرف بسبب الذباب المنزلى .. »

ـ « وأنا سمعت أنك تخرف بصدد أشخاص لاوجود لهم .. »

ثم التفت إلى الفتيات ، وسألهن بلهجة تمثيلية ساخرة :

- « هل سمعتن من يتكلم العربية هنا يا بنات ؟ »

كانت إحداهن تلوك اللادن ، فأخرجت فقاعة كبيرة من فمها وفجرتها لتلوث ما حول شفتيها ، وقالت :

- « لا .. لا .. »

وضعت (برنادت) كفها على كتفى ، ونظرت لهذه العصابة فى تقزز ، وقالت :

- « يكفى هذا يا (علاء) .. لنرحل .. »

نرحل ؟ إن الرحيل الآن يشبه أن توشك على العطس ثم لا تفعل .. لابد من أن أخرج ما لدى من عنف بشكل يرضينى شخصيًا .. لكنى لم أجد حلاً سريعًا ، فهززت إصبعى منذرًا فى وجهه ، وقلت بالعربية :

- « صبرًا أيها المهرج .. أنا لا أنوى أن أضربك هنا أمام هاته الحمقاوات ، لكنى أتحداك .. سنتقابل خارج الوحدة ونصفى الموضوع رجلاً لرجل .. أعدك أننا سنمضى وقتًا ممتعًا »

فى اشمئزاز قال بالفرنسية ليشهد الجميع :

- « أنا لا أعتبرك خصمًا .. ثم إن طرق البلطجة هذه لاتناسبنى .. نحن متحضرون هنا يا سيدى .. »

- « سأكون متحضرًا حين ألتهم كرتى عينيك .. أعدك أننى سأستعمل الملعقة ولن ألوث قميصى »

قلتها بالعربية ، واستدرت مع (برنادت) لنغادر المكان .. استدارت (برنادت) وهمست بشىء ما على سبيل اللوم للموجودين ، فجاوبتها إحدى الفتيات بضحكة رفيعة طويلة (مصهللة) ، كانت أسوأ لى من صفعة على قفاى ..

لو كان (باركر) هنا لفصلهن جميعًا دون استئناف .. فهذا السلوك لا يسمح به فى

(سافارى) ، لكنهم أجادوا اللعبة ، بعيدًا عن أى شهود من الإدارة .. « هذه ضربة .. ضربة محسوسة حقًا » كما يقول الأخ (شكسبير) ..

قالت لى (برنادت) وهى تلحق بى لاهثة :

– « ما لزوم هذا الموقف ؟ كانت مزحة سخيفة وكفى .. أنت تفعل بالضبط كل ما حذرتك منه ، وتترك انطباعا سيئًا عن حالتك العقلية .. »

قلت دون أن أنظر للوراء .. فقط أسمع لهاث أنفاسها من خلفى :

– « ما كان بوسعى أن أرقص طربًا ابتهاجًا بدعابته .. »

ثم سألتها :

– « لماذا لم يطردوا هذا المخرف بعد ؟ »

– « لن يفعلوا .. لربما يخصمون منه ثمن التلفيات أو لا يفعلون .. إن الأمر موضع أخذ وجذب بعد .. »

وتذكرت موقفًا سابقًا قيلت فيه كلمات مشابهة :

- « مستحيل أن يطردوه .. إنه مهم للوحدة باعتباره الإسرائيلى الوحيد بها ، وهو يعطيها صورة يريدونها من عدم التعصب .. خاصة بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين .. ولو طردوه لانفتحت عليهم أبواب الجحيم .. »

* * *

تنهدت فعادت تسألنى لاهثة :

- « وهل ستواجهه حقًّا كما فهمت من كلامه ؟ »

- « فقط حين لا يكون هناك شهود .. لولا الشهود من حولنا لمزقته بأسنانى الآن .. »

كانت قد تعبت من الركض ، فتوقفت وصاحت بينما المسافة بيننا تتسع :

- « كما تشاء .. ولكنى أحذرك من مغبة اندفاعك »

وهنا أخذت أول منحنى فى الممر مبتعدًا عنها تمامًا ..

* * *

« الخلل ليس هنا .. اذهب وابحث عن التفسير فى مكان آخر .. »

* * *

- « حسن .. ليكن .. إن لـ (آرثر شيلبى) بصمة فى كل حالة يراها ، وكلامك لا يحمل بصماتى .. هذا سهل ويمكن لأى طفل أن يتبينه »

* * *

« لو كنت تريد أن أقسم لك على المصحف فسأفعل .. أنا لاأعرف ما الذى تتكلم عنه .. ليست عندى أدنى فكرة .. »

* * *

وفى الصباح اتجهت - للأسف - إلى المعمل لأعاون (هيلجا) الألمانية المفترسة فى المعمل .. كأن كل هذه المصائب لا تكفينى ..

قابلتنى على الباب ولفافة التبغ المعهودة فى

يدها ـ لماذا لا يطردونها لأنها تدخن ؟ ـ وكانت تدس يدها فى جيبها وتتأملنى من فوق لتحت فى استمتاع ، ثم قالت :

ـ « حسن .. حسن .. حسن .. حسن .. إن لم يكن هذا مساعدى الحبُّوب .. كم الوقت معك يا فتى ؟

ـ « الثامنة والنصف .. »

ـ « وخمس دقائق .. أنا أمقت عدم الدقة فى المواعيد .. »

ثم انحنت وأشارت بيدها بحركة مسرحية ، تدعونى إلى الدخول .. حذار يا مدام حذار .. أنا اليوم قصير الفتيل قابل للانفجار ، وما تفعلينه يذكرنى بطفل غافل يتحسس زناد قنبلة هيدروجينية ، لو كان للقنبلة الهيدروجينية زناد ..

فتحت الحضّانة ، وأشارت لى إلى مجموعة المزارع الموجودة هناك فى أطباق (بترى) أو أنابيب

الاختبار ، وقالت لى إن هذا عملى اليوم .. فحص المزارع تحت المجهر ، والتخلص من السالب منهـا ، وتصنيفها .. هذا عمل يمكن أن يقوم بـه فنـى ـ ولسوف يؤديه خيرًا منى ـ لكن مصطلح (طبيب تحت التدريب) معنـاه أنه على أن أفعل أى شىء ، ولا أفتح فمى لحظة ..

جلست أجرى تلك الاختبارات الكئيبة .. الصبغ .. وضع طرف السلك فى اللهب .. الفحص المجهرى .. قراءة أقراص الحساسية لأرى أى مضاد حيوى كان الأكثر فتكًا .. تدوين النتائج فى الدفاتر .. حذار من الخطأ .. خطأ القراءة وخطأ الممارسـة .. الأول يؤدى إلى عقابى ، والثانى يؤدى إلى مرضى ، خاصـة وبعض هـذه العينـات ـ كالدرن والالتهاب السحائى ـ خطيرة حقًا إن لم تكن مميتة ..

وعند الظهر جلست أكتب نتائج المزارع ، كـل نتيجة فى النموذج الخاص بها والذى ترسله الأقسام فارغًا ، إلا من اسم المريض والرقم الكودى الخاص بالحاسب الآلى ..

هذه العينة تمثل التهابًا رئويًا سببته البكتريا العقدية المكورة .. إنها ذات البكتريا التى تسبب تسمم الدم وحمى النفاس والحمى الروماتزمية والتهاب اللوزتين .. لا بأس .. إنها حساسة لعدد لا بأس به من المضادات الحيوية أولها البنسللين العجوز الطيب ، صديق الأطباء المخلص الذى أهداه (فليمنج) للبشرية عام 1928 ومن يومها لم يخذلنا إلا قليلاً ..

من أين جاءت هذه العينة ؟ آه .. جاءت من قسم الطوارئ منذ ثلاثة أيام .. ما اسم المريض ؟

وهنا تصلبت شعيرات رأسى وتحفزت حواسى ، ووقفت كالملسوع أقرأ اسم المريض .. أقرؤه سبع مرات قبل أن أدرك أننى حقًا أقرؤه ، وأن عينىّ لا تخدعنى لأننى أحتاج إلى الخداع ..

(أحمد عدنان) ! قسم الطوارئ .. منذ ثلاثة أيام .. التهاب رئوى ..

(أحمد عدنان) ! قسم الطوارئ .. منذ ثلاثة أيام ..

(أحمد عدنان) ! قسم الطوارئ

(أحمد عدنان) !

(أحمد ..

أنا لا أحلم

* * *

غادرت المعمل غير مبال باحتجاجها ، ويبدو على كل حال أنها فهمت أننى أريد الذهاب للحمام .. إن المثانة والقولون لا يخضعان للأوامر على كل حال ..

كالمجنون رحت أركض عبر طرقات (سافارى) متجهًا إلى قسم الأشعة ، وكان (شنج هاو ـ شيانج) جالسًا هناك مع طبيب كندى شاب ، يبدأ رحلة التعاسة من بعدى .. فلما رآنى ـ الكورى ـ ارتفع حاجباه مقهقهًا . وقال فى تؤدة :

ـ « آها ! أنت تبر بوعودك سريعًا ، والوعود لا تثمر إلا فى تربة أنضجتها السنون وجففـ .. » .

- « مفهوم .. مفهوم .. كنت أريد أن أعـاونك في تنسيق الأشعات كما اتفقنا .. »

نهض متثاقلاً واتجه إلى خزانة زجاجيـة وأخـرج مجموعـة مـن الأشـعات العاديـة .. رزمـة سـميكة بحق .. وترنح وهو يحملهـا ليضعها على المنضدة ، ثم ابتسم في ثقة وقال لي :

- « هـذه هي الدفعــة الأولى .. وسـأجلب لـك الباقي »

هل هنـاك باق ؟ تبـًا ! حين جئت هنا لم أكـن أعرف أنني أقتحم عرين الأسد ، وليسـتغرقن هـذا العمل اليـوم بطوله ولا يترك لـي وقتـًا للراحـة أو الاستجمام أو حتى العودة إلى المعمل ..

وجلست أنسق الأشعات حسب نوعها وأتـأكد أن التقارير كلها مكتوبة .. كانت مشكلة هذه الأشعات أن الأقسام التي طلبتها لم تستردها ولم تطالب بهـا ، ومعنـى هذا أن المريض قد توفـاه اللّـه ، أو أنـه خرج ، أو أن الممرضة بلهاء لاتعي ما تفعله ..

كنت بالطبع أبحث عن اسم واحد .. اسم يبرر كل هذه المعاناة التى لم يكن لها داع .. وبعد عناء وجدته فى أشعة صدر عادية (خلفى أمامى) كما نكتب فى التذاكر .. والسبب هو أنها تلتقط من الخلف حتى لايتضخم ظل القلب على فيلم الأشعة ، ويعطى انطباعًا زائفًا ..

(أحمد عدنان) ! قسم الطوارئ .. منذ ثلاثة أيام .. التهاب رئوى ..

مرة أخرى !!! مرة أخرى !!

والأشعة تظهر بوضوح رئتى الفتى ، وأول نذر ذلك التصلب الفصّى الذى بدأ يتكون فى رئتيه وقتها .. بل إن ظل السلسلة واضح .. السلسلة التى كان يعلقها حول رقبته دائمًا ، والتى لم يجد فنى الأشعة ضرورة لأن يطلب منه نزعها ..

وتحسست جيبى فى شغف .. هناك وضعت طبق (بترى) الذى يحوى مزرعة بصاق الفتى ، وعليه

رقم الكمبيوتر الخاص به .. ومعه طلب التحليل الذى أرسله القسم ، وبيد حذرة خبيثة دسست تقرير الأشعة والطلب المرفق به فى جيب معطفى .. إن معى الآن أدلة ثمينة جدًا كلها تثبت أننى لم أكن أحلم ..

* * *

٨ ـ دعه يتكلم .. دعه يثرثر !

وعندما انتهيت من مهمتى غادرت المكان ، وقررت ألا أعود إلى (هيلجا) .. لقد تأخرت كثيرًا جدًا عليها ، وفى الغالب لن تكون هناك .. على الأرجح غادرت المعمل أو ماتت وقد تحللت جثتها تمامًا الآن لحسن حظى ..

كنت بحاجة إلى أن أخلو لنفسى وأرتب أفكارى ..

الفكرة الأولى واضحة تمامًا : لو كانت هناك مؤامرة ، فالجميع ـ بلا استثناء ـ متآمرون .. لاتخبر أحدًا بشىء ولا تعلن شكوكك .. إن من قام بإخفاء أى أثر لـ (عدنان) قد نسى فى بحثه المحموم بعض الآثار ، ولو عرف بأمرها فلسوف يعمل على إزالتها سريعًا ، وبالتالى لا يعود لديك دليل على ما تقول ، ويصير (عدنان) كأن لم يكن ..

لماذا يتورط (بسام) فى هذه القصة ؟ لا أدرى .. لكنه متورط وعليك أن تعمل وتتصرف على هذا الأساس ..

الفكرة الثانية أكثر وضوحًا : ثمة شىء ما قذر يدور هاهنا ..

الفكرة الثالثة منطقية : كل شىء بدأ بعد اصطدامى بـ (ليفى) وموضوع الذباب إياه .. أوشك أن أرى خيوط انتقامه منى ، ولكن كيف ؟ وبأية قدرات سحرية جعل كل الوحدة تنضم إليه ؟ ما اللعبة التى لعبها بصدد ملفات الحاسب الآلى والتذاكر وخلاف ذلك ؟ ولو كان قادرًا على هذا ـ وهو ليس كذلك ـ فما سلطته على (آرثر شيلبى) والطبيب الروسى و(بسام) بل ومدير الوحدة ذاته ؟

يجب أن يتكلم (ليفى) .. وفى هذه المرة يجب أن أتصرف وحدى ..

* * *

فى الثامنة مساءً يمارس (ليفى) هواية غريبة بعض الشىء .. إنه من هؤلاء الأشخاص الذين يحبون قضاء الأمسيات مع الكلاب .. والسبب هو أنه يعمل فى بحث علمى عن تأثيرات فيروس السعار على العصب البصرى ، وبالطبع يحتاج بحث هكذا إلى حيوانات تجارب لأنه من العسير إقناع إنسان بالإصابة بالسعار ، مهما كان متحمسًا للبحث العلمى .. والكلاب ليست لها حقوق مدنية على كل حال كما يقول الفيلسوف (جورج ميد) ..

يتجه (ليفى) إلى مختبر الحيوانات ، وهو موجود خلف الوحدة فى مكان يشبه المرآب ، وبالطبع له رائحة خانقة مميزة جدًا .. رائحة من الطراز الذى لا تشمه إلا فى حديقة الحيوان فى قفص الأسود .. هنا تجد فئران تجارب .. قرود تجارب .. كلاب تجارب .. خنازير غينيا تجارب .. أطباء تجارب ..

يضىء المصباح الخافت ، لكن المكان يظل برغم

هذا يعج بالظلال المخيفة .. يتجه عبر الأقفاص المتلاصقة نحو مجموعته المختارة من الكلاب ، وهى مجموعة مقضى عليها بالموت .. كلها لا يأكل ولا يشرب منذ أيام ، وليس فى وسع كائن أرضى أن ينقذها الآن لأن داء الكلب ـ بكسر اللام ـ لا علاج له .. بعضها ينبح فى اتجاه (ليفى) وثمة قرد يحاول أن يمسك به من بين القضبان .. ما إن يظهر مخلوق بشرى هنا حتى يتحول المكان إلى جحيم ، وقد جربت أنا هذا من دقائق ، لكن المكان لحسن الحظ بعيد عن الأسماع ..

ها هو ذا يلبس الكمامة على وجهه .. إن لعاب هذه الكلاب خطر داهم .. يتقدم إلى مجموعة أقفاص الكلاب ، ويمكنك أن تعرفها بسهولة من عيونها المضمدة لأن أكثرها مرّ بجراحات استئصال أو زرع قرنية سابقة .. كلها تعوى وتصطدم بالقضبان والزبد يتناثر من أفواهها ، لكنه يعرف جيدًا ما يفعله .. لقد انتهت أيام (باستير) من

زمن بعيد ، حين كان مساعده الجسور (رو Roux) يقرب فمه من فم الكلب المسعور ، ليولج أنبوبًا تحت لسانه ، يمتص به اللعاب القاتل (لاحظ أن مرض الكلب وقتها لم يكن له حتى اللقاح الذى نعرفه اليوم) .. أما اليوم فالأمر يختلف .. طلقة Dart من المخدر على الكلب المختار ، فيرتجف هذا ثم يسقط على أرض القفص .. بعدها يفتح القفص ، ويخرج الجسد ، ويجرى الفحوص اللازمة أو ينقله إلى غرفة الجراحة المعقمة المجاورة ، التى يقوم فيها مع طبيب التخدير اليابانى (إيشيهارا) ومساعده الأمريكى ، بإجراء ما يريد من جراحات على القرنية ..

يدنو من الكلب المختار الذى راح يكشر عن أنيابه فى جشع منذرًا بالويل .. يحسن التصويب و...

كرانك !

كلا ليس هذا هو صوت الطلقة ، فلا يوجد

مسدس يحدث هذا الصوت .. إنه صوت الباب الحديدى العملاق الشبيه بأبواب السجون ، والذى يفصل هذا الجزء عن باقى المعمل .. لقد أغلقه أحدهم ، واستدار (ليفى) ليجدنى أضع الجنزير وأثبّت القفل ...

- « ماذا تفعل أيها المخبول ؟ »

- « أسجنك هنا .. ظننت هذا واضحًا .. »

- « و.. و.. لماذا ؟ »

كان يتوقع الأسوأ وقد منحته له عن طيب خاطر .. حتى هذه اللحظة لا يوجد كمين ، لكن بالتأكيد هناك واحد .. بحث بعينيه عن الشرك فوجده دون جهد ..

كان هناك قفص بابه موارب ، والكلب المسعور الذى بداخله يرتجف شغفًا وتوحشًا .. لا شىء يبقيه فى مكانه إلا حبل طويل من البلاستيك ، يبدو أنه يلتف حول عنق الكلب ثم يمتد عبر

القضبان إلى خارج الزنزانة .. إلى يدى الممسكة به فى حزم ..

قلت له فى هدوء وسماجة :

ـ « كما ترى .. القفص مفتوح .. وأنا أملك الوحيد فى إبقاء هذا الكلب المفترس داخل قفصه .. ولقد تجشمت كثير عناء كى أدخل هذه الأنشوطة عبر القفص وألفها حول عنق الكلب الأكثر حماسًا .. ثم أثبت الحبل بالخارج إلى أن أفتح القفص له .. صدقنى إنه غاضب مجنون ، وصدقنى إنه متلهف كى يبدأ ، وصدقنى إنه سيريك مدى امتنانه للجراحات التى تجريها على عينيه دون موافقته .. »

وتحسست الحبل فى يدى :

ـ « إننى أرتجف هلعًا لفكرة أن أموت الآن أو أفقد وعيى ، وبعدها تجد نفسك وحدك مع هذا الشيطان .. ودعنى أذكرك أن مرض الكلب لا علاج له ، وأن الوقاية منه تفشل أحيانًا إذا كان حجم الجروح كبيرًا .. »

لم يكن فى حاجة إلى تنكر هذا .. فقط نقل عينيه من الكلب الذى لايبقيه فى قفصه إلا حبل طويل ، إلى الحبل ذاته ثم إلى يدى .. وفى كراهية قال :

ـ « أنت وحش مريض .. لقد فعلت هذا من قبل مع (دافنبورت) .. ألن تكف عن هذه الألعاب السادية ؟ »

ـ « فى الحرب والحب يجوز كل شىء .. »

كان المسدس فى يده ، وبيد مترددة رفعه نحوى وهو يضغط على شفتيه ، فصحت :

ـ « لا .. لا .. أنصحك ألا تفعل .. سأنام أنا نصف ساعة بينما تمرح أنت مع الكلب وحدكما .. »

كان نباح الكلب يتعالى ، مما جعل الأمر أقرب إلى الكابوس .. وأدرك كذلك ـ إنه ذكى بلا شك ـ أن الاستغاثة لا جدوى منها على الإطلاق .. لن يسمعه أحد وسط هذه الغابة الصاخبة ..



كان المسدس في يده ، وبيد مترددة رفعه نحوى
وهو يضغط على شفتيه . .

صاح محاولاً أن يتغلب على نباح الكلاب (نسيت أن أقول إننا كنا نتكلم الإنجليزية ، كى يكون الفهم تامًا) :

ـ « ما الذى تريده ؟ »

ـ « كالعادة .. أريد اعترافًا بما حدث لى .. »

ـ « وما الذى حدث لك ؟ »

قالها وهو يرمق الكلب الهائج الذى يحاول التملص بلا هوادة .. يثب على قضبان القفص .. الزبد يتطاير من شدقيه ، ومن الواضح ما سيحدث لو تملَص .. قلت له :

ـ « أنت تعرف ما يحدث جيدًا .. (عدنان) شخص حقيقى .. لقد تأكدت من هذا ، وأعرف جيدًا أن لك علاقة بهذا كله .. هلم ! لا تضيع الوقت فى الهراء .. إن هذا الحبل يضايق يدى ، ولا أضمن ألا ينزلق منها حالاً .. »

ـ « لكنى لا أعرف شيئًا .. كيف أثبت هذا ؟ »

ـ « لن تثبته لأنه كذب .. »

جلس على مقعد هناك ، وبيد مرتجفة أخرج لفافة تبغ ، ثم قال :

ـ « إذن .. يمكنك الانتظار للأبد لو أردت .. »

أصار حكم أن الفأر بدأ يلعب فى عبى .. من الصير على المرء أن ينكر حتى هذه المرحلة ، وما دام الفتى لم يتكلم حتى هذه اللحظة فهناك احتمال ليس واهيًا أنه لا يعرف فعلاً شيئًا عن الموضوع ... ماذا أفعل .. ؟ أطلق سراحه وأعتذر ؟ لكن كيف ؟ لعلهم كانوا على حق حين اتهمونى بالتهور والاندفاع ..

قررت أن أجرب حظى لمرة أخيرة ، فجعلت الحبل يرتخى فى يدى أكثر .. هنا ـ لحسن حظى ـ ثار الكلب أكثر ، وراح يخمش الأرض وينبح فى غضب مجنون ، كأنما يؤدى ببراعة دورًا كتب له .. لم لا ؟ أليس مسعورًا ؟

تراجع (ليفى) للوراء قليلاً ثم بدأ تماسكه يهتز :

- « **امسكه جيدًا .. تبًا لك من مجنون ! امسكه جيدًا يا أحمق ! »**

ثم ألقى بلفافة التبغ وداسها بقدمه وقال مستسلمًا :

- « ليكن .. نحن جربنا عليك عقار الهلوسة !! »

ساد صمت ثقيل ، وكان معناه الواضح هو (استمرّ) فاستمر :

- « ليس عقار الهلوسة المعروف بـ L.S.D (ليزرجيك أسيد داى إيثيل أميد) الذى كان الهيبز يتعاطونه ، بل هو تطوير له .. لا أعرف التفاصيل الفارماكولوجية ، لكنها تتضمن إدراج مجموعة ميثيل أو إيثيل أو شىء من هذا القبيل .. الخلاصة أنه لا يجعلك تهلوس كالمدمنين ، لكنه يجعل استقبالك للعالم الخارجى يختلف عن الآخرين .. هلوسة جزئية

تتعلق بمكان أو شخص ويسهل أن يتّهم من يتعاطى هذا العقار بالجنون أو النسيان الهستيرى .. »

- « ومن أعطاك العقار ؟ »

- « لا يهم .. إن لى مصادرى ، وأحسبك لاتريد إلا دورى فى الموضوع .. »

- « عظيم .. عظيم .. ومتى دسستم لى هذا الشىء ؟ »

- « لقد قدم لك طبيب هولندى علبة من الكولا ، وشربتها أنت بحسن نيه .. ثم بدأ كل شىء .. »

جلست مرتخى الأطراف على مقعد هناك ، وحاولت أن أركز تفكيرى .. لقد كان هناك ..

★ ★ ★

..... مرّ بى طبيب هولندى يحمل علبة من الشراب ، وبدا كأنما سر لأنه وجد أحد الحمقى حين أراد واحدًا .. ، وقال لى فى ضيق :

ـ « هل تشرب هذه بدلاً منى ؟ إننى لا أشرب هذه الأشياء ، وأكره أن أرميها .. »

كانت علبة من الكولا الباردة ، فتناولتها شاكرًا وفتحتها ، وأفرغتها فى جرعتين ....

* * *

طبيب هولندى قدم لى بعض الـ ......

ولكن .... ثمة شىء ما خطأ .. لكنى .. ماذا كنت أريد قوله ؟ يا لاضطراب فكرى !

رفعت وجهى إلى (ليفى) وسألته :

ـ « هل تعنى أن الهلوسة جعلتنى أعتقد أن (عدنان) اختفى ؟ »

ـ « بل جعلتك تعتقد أنه كان موجودًا من البداية ! ليس هنا طبيب يدعى (عدنان) ولم يوجد قط !

والأوراق التى فى جيبى ؟ ومددت يدى أبحث عنها لأريه إياها .. رباه ! جيبى خالٍ تمامًا !

هنا سمعته يصيح :

ـ « الحبل ؟ أنت تركت الحبل ؟! »

★ ★ ★

٩ ـ مرحبًا بك فى النادى !

دون كلمة أخرى اتجهت إلى باب الزنزانة المغلق وفتحت القفل ، ثم أزحت الجنزير ، وغادرت المكان ..

فقط سمعته يهتف فى عدم تصديق :

ـ « ولـ .. ولكن .... »

قلت لنفسى وأنا أمشى عبر ردهات (سافارى) التى بدأت تخلو من العابرين : سيكون خداع هؤلاء القوم صعبًا فى المرات القادمة ، لأنهم رأوا الكثير من أسلوب (البلف) الذى أجيده ..

حبل حول عنق كلب مسعور ؟ يا سلام ! من يظننى هذا الأحمق لأقطعها ؟ وماذا لو تمكن الكلب من الانقضاض على أصابعى ؟ إن طرف الحبل الثانى كان حرًا يلتف فقط حول جزء من القفص ،

وقد اخترت قفصًا يغطى بابه الانطباع بأنه موارب .. وفى الظلام ومع التأثير النفسى يمكن للمرء أن يصدق أى شىء .. أنا لن أترك كلبًا مسعورًا يعض أى إنسانٍ أبدًا ومهما آذانى هذا الإنسان .. لكنى منحته ما هو أسوأ من السعار .. منحته الهلع !

سيحتاج (ليفى) إلى شجاعة أكثر من اللازم كى يواصل تجاربه على هذه الكلاب المسعورة ، وسيحتاج إلى وقت طويل كى يفهم أننى كنت ألعب به .. ألعب به بقسوة ...

لكنه تكلم ، وكلامه هو ما كنت أحتاج إليه ..

فقط يجب أن أختلى بنفسى كى أفسر كلماته وأربطها بالواقع ..

* * *

السؤال الأول - والأهم - هنا هو : أين ذهبت الأوراق ؟

فى الحقيقة لا أعرف ، ومن العسير افتراض أننى أضعت أوراقًا بهذه الأهمية ، لأننى أبله أو شىء من هذا القبيل .. حتى الأبله يعرف أين ومتى يتوقف عند نقطة ما ، ويتصرف بذكاء ..

السؤال الثانى مهم أيضًا : متى بالضبط تعرضت لجرعة عقار الهلوسة ؟ تعرضت لها ـ كما أذكر ـ بعدما انصرفت (برنادت) من الكافتيريا ، وقبل أن أذهب مع (بسام) لزيارة (عدنان) .. التوقيت هنا مهم جدًا ...

أى أننى لم أكن أهلوس حين زرت (عدنان) المريض فى الطوارئ لآخر مرة ، فلم يكن العقار قد أدى دوره بعد بهذه السرعة .. ولو فرضنا جدلاً أنه عقار يعمل بسرعة الفمتوثانية ، فكيف يعمل بأثر رجعى ؟ بمعنى أن يقحم (عدنان) فى قصصى السابقة ؟ لقد جاءنا (عدنان) أيام أزمة جنون الحيوانات إياها .. وقد كتبت هذا فى خطاباتى ومذكراتى .. لا تقل لى إن عقارًا أتعاطاه الآن قد غير أحداثًا قديمة موثقة ..

ولو كان هذا العقار بهذه القوة ـ إلى حد تغيير الماضى ـ فمن أين جاء اسم (عدنان) على الأشعة وتحليل البصاق ؟!!

الخلاصة : هناك واحد فعلاً يدعى (أحمد عدنان) .. وقد عرفته وعُدتُه فى مرضه ..

إذن العقار لم يجعلنى أتخيل وجود الفتى .. فهل يكون قد جعلنى أتخيل اختفاءه ؟ بالطبع لا .. فمن الواضح ـ حتى هذه اللحظة ـ أن الكل يعتقد أنه غير موجود أصلاً .. ولو كنت أتخيل أنه اختفى ، لكان الكل يسخرون منى ويؤكدون أنه موجود ويمارس عمله جيدًا ..

يا لها من دوامة عقلية !

النتيجة المنطقية الوحيدة هى أن العقار لم يلعب دورًا واضحًا معى .. لم يجعل (عدنان) يظهر أو يختفى ... ولو تعاطاه كل الموجودين فى (سافارى) ما عداى لكانت القصة قابلة للتفسير ،

لكننى الوحيد الذى تعاطاه ، وبالتالى أنا الوحيد المفترض منه أن يهلوس ..

أين تنتهى الحقيقة وتبدأ الهلاوس إذن ؟ متى كففت عن أكون مصيبًا وصرت مخرفًا ؟

وراحت الصور تتلاعب فى ذهنى حتى غلبنى النعاس ..

* * *

فى الصباح غادرت غرفتى مشوش الذهن مضطربًا ، كأنما لم أكن نائمًا وإنما أتلقى علقة من عشرة مصارعين ضخام الأجساد .. كنت أعرف أن (ليفى) سيظل صامتًا .. هذه هى مزية تهديد من ارتكب جريمة بدوره .. تاجر المخدرات لا يبلغ الشرطة عن سرقة متجره .. إن الأمر بيننا حرب خفية لا يلاحظها الكثيرون أو لا يعرفون تفاصيلها ، وكلما رآنا أحد من الإدارة ، احتفظنا بالبسمات المتحضرة المتمدينة إياها .. لكن (ليفى) يعرف

وأنا أعرف أننا لو رحلنا إلى عالم افتراضى ليس فيه سوانا ... عندئذ ... آه ه ه ه ه ه ! هذا أجمل من أن أحلم به ..

واتجهت إلى المعمل لأتلقى اللوم والتوبيخ من (هيلجا) .. لا بأس .. لقد استحققت هذا على كل حال ..

ثم جلست كى أواصل ما تركته لى من عمل أمس ..

بعد قليل دخل المعمل طبيب فرنسى شاب اسمه (ميشيل بيلار) .. لم تكن لى علاقة به ، لكنى أعرفه جيدًا .. أزعم أننى أعرف كل وجه فى (سافارى) الآن .. إنه يدرس الغدد الصماء ، وهو شاب خجول مهذب ، شديد الانطواء ، ومن الواضح أنه معجب بزميلته الفرنسية السمراء (صوفى) ، لكنه بالطبع لا يصارحها بشىء .. هذا هو ما كنت أعرفه عنه حتى هذه اللحظة ..

فى عينيه لهفة ، وعلى شفتيه سؤال حائر ، وثمة دمعة توشك على الانحدار من عينيه .. غريب هذا !

اتجه إلى (هيلجا) وفى تردد سألها :

ـ «فراو (هيلجا) .. أرجو أن تخبرينى بالحقيقة .. »

وضعت قبضتيها فى خصرها ، ولفافة التبغ بين شفتيها ، وفى حزم قالت :

ـ « الحقيقة قلتها لك أمس يا فتى .. وليست مشكلتى ألا تصدقها .. »

ارتجفت يداه وبدا موشكًا على القىء .. وقال ضاغطًا على كلماته :

ـ « أقسم لك إننى لا أمزح .. لقد كانت هنا .. أنا لا أهذى .. »

أشارت إلى الباب فى صلابة وقالت :

ـ « يمكنك أن تبحث عنها فى مكان آخر .. أنت تضيع الوقت هنا .. »

ـ « لقد ظلت (صوفى) تعمل معك ثلاثة أسابيع ، وبرغم هذا تقولين إنك .... »

ـ « .. لا أعرفها ، ولم أرها ولا يذكرنى الاسم بشىء ... والآن .. »

وأشارت فى حسم إلى الباب .. لو كنت مكانك يا بنى لغادرت المكان حالاً .. إن الاشتباك مع هذه المرأة مستحيل نفسيًا وجسديًا .. فهى أقوى شخصية منك وأقوى جسدًا كذلك ، وأعتقد أن نهايتك فى دفعة واحدة من يدها المعروقة هذه ..

ـ « ولكن ... »

هنا فقط تنبهت إلى ما يقول الفتى .. ثمة شىء مألوف فى هذا .. وأخبرنى حدسى ـ الذى قلما يخطئ ـ أن الأمر بالتأكيد أكبر من مجرد سوء تفاهم .. الأمر آت من نفس العالم الغامض الذى جاءت منه مشكلتى ..

يقول إن (صوفى) لم تعد هنا .. وأنا أعرف (صوفى) .. هذه المرة أنا أعرفها جيدًا ولن يستطيع أحد أن يزعم أنها لم توجد .. ولكن ما هى القصة بالضبط وما هى أبعادها ؟؟

خرج الفتى من المعمل ، فهرعت ألحق به دون أن أطلب الإذن من (هيلجا) كالعادة .. لن يضيف هذا جديدًا ، وأنا على كل حال ـ لحسن حظى ـ أملك دليلاً ماديًا على أننى مضطرب العقل .. لقد أمضيت ساعتين مع د. (جونستون) ، وليس على المريض حرج إن كان بوسعهم فهم هذا ..

ـ « هيه ! د. (بيلار) ! »

نظر إلى الوراء متسائلاً ، فلحقت به .. وتأبطت ذراعه قائلاً فى مودة أثارت توجسه :

ـ « هل يضايقك أن نجلس لنتكلم فى الكافيتيريا ؟ »

راح يرمقنى فى رعب وتوتر ، فقلت له وأنا أفتح ذراعى ومعطفى كما يفعلون فى الغرب الأمريكى :

ـ « كما ترى .. أنا غير مسلح ! »

وللمرة الأولى ابتسم ..

* * *

كانت (صوفى) قد جاءت إلى الوحدة منذ أشهر ، وكانت فرنسية من أصل إفريقى .. إن الزنوج فى فرنسا كثيرون جدًا فى الواقع ، وحتى (هتلر) فى كتابه (كفاحى) ـ أى منذ الثلاثينات ـ قد لاحظ هذا واغتاظ له جدًا ، ووصف فرنسا بأنها تحولت إلى (دولة إفريقية فى أوروبا) ..

فاتنة هى (صوفى) .. جمال الأبنوس كما وصفه الشعراء .. فيها كل ما يميز غزال (أمبالا) الرشيق ، وكل ما يثير غيظ (هتلر) .. وبالنسبة لـ (ميشيل بولار) كانت هى أجمل وأرق فتاة عرفها فى حياته ، وقد قام بالنشاط المعتاد لأى رجل خجول يعجب بفتاة : لاحقها بعينيه فى كل مكان ، وكان يرسل نظراته كى تكنس الأرضية التى تمشى عليها ، وترتب سرير الفحص فى عيادتها ، وربما تصفف لها شعرها (الأكرت) أيضًا .. الخلاصة أن (بولار) كان يعرف جيدًا أن (صوفى) حقيقية .. ربما حقيقية أكثر منه بمراحل ..

ـ « ثم فجأة لم تعد هناك .. »

وبالسؤال عنها لاحظ شيئًا غير متوقع .. الجميع ينكر أن هناك من تدعى (صوفى) فى وحدة (سافارى) .. صديقاتها .. زميلاتها .. مرضاها .. ممرضاتها .. الجميع قال إنها لم تكن .. لم توجد قط ..

قلت له وأنا أجرع القهوة التى لها مذاق عرق سحلية (البازيليك) :

ـ « .. وبحثت جيدًا فى الأوراق ، ولربما فى ملفات الحاسب الآلى فلم تجد شيئًا .. »

ـ « بالضبط .. لم توجد ولا توجد من تدعى (صوفى دافريه) .. »

وضعت كفى على كتفه فى مرح ، وقد بدا لى أن الحياة تبتسم لى من جديد :

ـ « مرحبًا بك فى النادى يا بنى .. يسرنى أننى لم أعد وحدى هنا ! »

* * *

١٠ ـ بعض التفتيش لن يضر أحداً ..

في لهفة أمسك يدي بكلتا يديه وهتف متوسلاً :

ـ « أنت رأيتها مثلي .. أنت تعرفها مثلي .. أنا لست مجنوناً .. »

انتزعت يدي وقلت في سأم :

ـ « رأيتها وعرفتها ، لكن شهادتي ليست مما يمكن أن ينقذك .. إن عقلي قد صار موضع تساؤلات كثيرة ، وفي الغالب لن ينظروا إلينا إلا كبرادي شاي لا أكثر .. وسيقولون : من يشهد للمجنون بأنه براد شاي إلا مجنون آخر ؟ لكن دعني أسألك بدوري نفس السؤال .. هل عرفت أو قابلت عربيًا يدعى (أحمد عدنان) هنا ؟ »

وكنت أعرف أنه سيجاملني ، ويقول أنه يعرفه حتى لو كان كاذبًا ، لكنه هز رأسه في حيرة وفكر قليلاً ، ثم قال :

- « لا أدرى .. لا أعرف كل الأطباء هنا .. »

هذه المرة جاء نورى كى أقول بلهجة كالتوسل :

- « تذكر قليلاً .. إن الأمـر مهـم لى .. إن الفتى يشبهنى إلى حد ما لكنه أكثر سمرة ونحولاً وتهذيبًا .. »

فكر قليلاً ثم هز رأسه كمن تذكر ، وصاح :

- « نعم .. نعم .. أعرفـه .. إنـه ذلـك المهتم بأمراض المناعة الخلوية .. »

- « الآن فقط أدرك أنك تعرفه حقًا .. »

* * *

فى الساعة التالية جلسنا نمحص الموضوع بدقـة ، وشـعرت بالرضـا لأن هنـاك مـن يشـاركنى هواجسـى وأوهامى المتضاربة .. ربما كان مجنونًا ، لكن الجنون ليس معديًا ، ولو كان معديًا فضلالاته ليست كذلك .. ومن العسير أن يحتفظ كل منـا بالاعتقـاد المضـلل

ذاته .. وكما قالت (برنادت) : كل مصحة فيها براد شاى ، لكن ليس فيها برادان ..

قلت له والغموض يزداد كثافة من حولنا :

ـ « لسبب ما اختفى هذان الاثنان .. ولسبب ما اختفيا كذلك فى ذهن أفراد (سافارى) وملفاتها والحاسب الآلى .. إن الملفات والحاسب الآلى يمكن العبث بهما .. لكن لا يمكن العبث بأذهان أشخاص أعزاء مثل (برنادت) و (بسام) أو محترمين موثوق بكلامهم مثل (بارتلييه) أو (شيلبى) »

أضاف موافقًا على كلامى :

ـ « ولسبب ما لم يختفيا من ذهنينا أنا وأنت .. فلماذا ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكن عملية الإزالة والمحو لم تكن محكمة تمامًا معزولة عن الماء كما تعلم .. ثمة ثغرات مثل الأشعة ومزرعة البصاق فى حالتى ..

وإننى الآن قد كسبت شيئًا مهمًا : اليقين من أننى لست مجنونًا .. ولعمر اللَّه هذِه نقطة يمكن البدء منها .. »

ثم تذكرت شيئًا مهمًا ، فملت عليه أسأله :

ـ « ماذا كانت (صوفى) تعمل فى آخر مرة رأيتها فيها ؟ »

ـ « لم تكن تعمل شيئًا .. كانت مكلفة بمعاونة تلك الطبيبة الألمانية المفترسة ثم أصابها بعض التوعك .. وقد وقفت مكانها طبيبة هندية لتكمل العمل .. طبعًا تنكر هذه الهندية كل شىء ، وكما رأيت فإن (هيلجا) أيضًا تنـ ... »

ـ « هذا غريب .. نفس ما حدث مع (عدنان) تقريبًا .. لو كان هذا مرضًا اسمه (الاختفاء) ، فإن التوعك فى أثناء العمل هو أول أعراضه .. »

ثم نهضت ، وقد استقر عزمى على شىء ، فقال لى دون أن ينهض :

ـ « ماذا تنوى عمله ؟ »

ـ « ما لم أفعله من زمن ، وكان من المنطقى أن أفعله .. سأدخل غرفة (عدنان) .. »

* * *

فى هذه الساعة من النهار يخلو جناح سكنى الأطباء تمامًا ، ومن دون أسئلة محرجة ، يمكنك أن تأخذ فيلاً إلى حجرتك ، أو تسرق فيلاً من حجرة أى واحد ، لو كانت الأفيال هنا بهذه الكثرة ..

عند نهاية الممر توقفت ونظرت حولى .. لا أحد .. أخرجت مجموعة المفاتيح الخاصة بى ، وبدأت أجرب .. هذا لا يحتاج إلى براعة ما لأن كل أبواب (سافارى) تفتح بذات السهولة ، ولربما انفتح القفل لو أنك (شخطت) فيه قليلاً ، لكنى للدقة لم أجرب هذا الأسلوب بعد ..

انفتح الباب .. وأخيرًا أرى الغرفة المظلمة اللهم

إلا من ضوء خافت يتسرب عبر ستائر النافذة السميكة .. أغلقت الباب ورائى ، ودخلت ..

من الواضح أنه لا أحد يقيم فى هذه الغرفة الآن ، لأنها أشبه بغرف المستشفيات بعد خروج المريض .. كان من الطبيعى ـ ضمن ما يحدث لى من غرائب ـ أن أجد أن هناك من يقيم فيها منذ عشر سنوات ، لكن هذا لم يحدث ولله الحمد .. الغرفة الخالية مازالت كما هى .. غرفة خالية ..

ثمة محاولة تنظيف سريعة متعجلة حدثت منذ أيام .. ملاءة جديدة وأكياس وسادات جديدة ، وجوار الفراش كانت علبة من دواء مخفض للحرارة ، كجزء من عملية النسيان المستمرة .. إن من محا هذه التفاصيل ليس كلى القدرة كما هو واضح ، ولو جرؤت لاتهمته ببعض الإهمال ..

فتحت الخزانة الجدارية ، وفتشت فيها ولم أجد شيئًا ذا أهمية .. فردة من جورب أزرق لا يدل على شىء .. ثم بحثت فى الكومود جوار الفراش .. كان

هناك درجان .. الأول كان خاليًا إلا من ترمومتر لم يتمٍ هزّه ، والزنبق فيه ما زال يحمل رقمًا مرتفعًا حقًا .. الدرج الثانى كان خاليًا أيضًا لكنى وجدت ما يشبه بطاقة صغيرة محشورة فى ركنه .. مددت يدى وانتزعتها وتأملتها فى الضوء الخافت .. كانت متصلة بدبوس مشبك وقد كتب عليها :

أحمد عدنان الغمدى
طبيب مقيم

وعلى البطاقة المثنية المغلقة كانت أختام (سافارى) وتوقيع (بارتلبيه) ورقم الحاسب الآلى .. باختصار .. كل شىء .. إننى أحمل بطاقة تعريف مماثلة مثبته إلى معطفى ، وهى حجة رسمية لاجدال بعدها ..

دسست البطاقة فى جيبى ، وثبتها بدبوس المشبك إلى قماش الجيب ، وأقسمت إنها لن تختفى فى ظروف غامضة .. ثم أغلقت الدرج ، وأعدت تفقد

الغرفة فى دقة ، ثم وقفت أرمق الفراش وأنا أرسم الخطة فى ذهنى ..

لن يساعدنى أحد فى (سافارى) ، لذا سأغادرها خلسة متجهًا إلى (ياوندى) ، وهناك سأقابل مدير (سافارى) السويسرى ـ الرجل الكبير ـ الذى يرأس (بارتلييه) .. سأقدم له البطاقة وأطلب منه أن يحقق فى الأمر .. لن ينكر ويتهمنى بالجنون .. أشياء كهذه تحدث فى أفلام الرعب التى تناقش تيمة الاستبدال أو الاستحواذ لكنها لا تحدث فى الواقع ..

فقط يستطيع مديرو (سافارى) وربما رجال الشرطة فهم سر اختفاء طبيبين من (سافارى) ، وإنكار كل العاملين بالوحدة لهذه الحقيقة ..

كنت غارقًا فى أفكارى ولا أدرى متى ولا كيف دخل الغرفة من دخل ..

كنت غارقًا فى أفكارى فلم أدر كيف ولا متى هوجمت من الخلف ..

كنت غارقًا فى أفكارى فلم أدر متى ولا كيف غبت عن العالم ..

* * *



كنت غارقًا فى أفكارى فلم أدر كيف ولا متى
هوجمت من الخلف . .

١١ ـ براد شاى حاول الانتحار ..

بيب ! بيب ! بيب !

هذه الأغطية الناعمة الجميلة تحيط بى ، وذلك الوجه الصبوح كأنه القمر يطل علىّ .. على ماذا بالضبط ؟ حقًا لا أعرف .. لكنه القمر ـ هو وجه (برنالت) طبعًا حتى ولو كان منكوش الشعر أحمر الأنف .. إنها هنا ، وحولها مجموعة أخرى من الأقمار القبيحة التى أعوذ باللّه من منظرها .. بيب ! بيب ! بيب ! أرى وجه (بارتلييه) و(بيير) و(فاريا) طبيب الطوارئ الروسى .. وأدرك أننى أنفذ سيناريو الإفاقة المعروف .. وكل ما علىّ هو أن أفتح عينى فى تعب وأتساءل : أين أنا ؟

كانت هناك إبرة مثبتة على ذراعى يتدفق منها محلول ما ، وكانت الممرضة الإنجليزيه الشرسة

تصدر أوامرها لممرضة فلبينية طفلة مذعورة ، فرغت على الفور من حقن شيء ما في القناة الوريدية .. بيب ! بيب ! بيب !

ونظرت جواري .. كان الأمر مخيفًا بحق .. فأنا أرى معدات الإفاقة الرئوية القلبية CPR بكل ما تعنيه .. القناع وجهاز الصدمات القلبية وبيكربونات الصوديوم وأمبولات الإبينفرين المهشمة .. كلا .. هذا ليس لي يا سادة .. لا يمكن أن يكون لي لأني لست من الطراز الأحمق الذي يتوقف قلبه عن الخفقان .. بيب ! بيب ! بيب ! ونظرت إلى اليمين لأرى الجمال الخضراء تمشي مسيرتها الأبدية على شاشة المرقاب (المونيتور) ، تلك المسيرة التي لن تتوقف إلا يوم أموت أنا ..

وسألت (برناردت) في حذر :

ـ « هل ... هل توقف قلبي ؟ »

ابتسمت ولم تقل شيئًا ، لكنى رأيت دمعة متصلبة في عينها كانت إجابة لا بأس بها ..

هنا قال (بارتلييه) في ضيق :

ـ « أنت أحمق ، وقد توقف قلبك بالفعل لبضع ثوان .. لكن الوقت ليس ملائمًا للوم على كل حال .. »

ونظر إلى (بيير) الذى يفهم هذه الأمور وسأله :

ـ « هل هو بخير الآن ؟ »

ـ « أعتقد .. سأعيد غسيل المعدة ثانيًا ، ولربما لن نحتاج إلى غسيل كلوى لإزالة تلك الباربيتيورات(*) من الدم .. »

هنا كدت أهب صارخًا ، لولا أن أوقفتنى ست أيد ملهوفة تأمرنى بألا أفعل :

ـ « باربيتيورات ؟! »

(*) دواء منوم ويستعمل للانتحار بكثرة ..

قال (بيير) فى هدوء كأنما يروض جوادًا جامحًا بالإمساك بخطمة :

ـ « صبرًا .. صبرًا .. لم يعد هناك الكثير منها فى دمك .. ستكون على ما يرام .. »

ثم نظر لمن حوله وصاح آمرًا :

ـ « هيا يا جدعان .. لم يعد هناك ما ترون .. »

تفرق الواقفون وهم يتمنون لو بقوا ليستمتعوا بما يحدث .. وبقيت وحدى مع (برنادت) التى بدا أنها لا تنوى الانصراف .. كانت جالسة على طرف الفراش ، والدموع فى عينيها ، فشعرت بفخر شديد .. لو كان توقف قلبى قد أسال هذه الدموع من أجلى ، فإنها واللّه لم تكن تجربة مؤسية على الإطلاق ! المشكلة الوحيدة أن الفارق بين دموع الشفقة ودموع اللهفة على حبيب ؛ هو فارق واه جدًا يصعب تبينه .. وأنا لن أسألها .. من أكون أنا حتى أسألها ؟ إنها ستنكر

على كل حال ، وستقول إن منظرى وأنا على حافة الموت (صعب عليها) .. هكذا لا أكثر ...

بعد ما غدونا وحدنا ، سألتها فى لهفة :

- « ما موضوع توقف القلب والباربيتيورات هذا ؟ »

أخرجت منديلها فأفرغت فيه رطلين أو أكثر ، ثم قالت دامعة :

- « بففففففف ! لماذا تحاول الانتحار يا (علاء) ؟ أنت هنا بين أصدقائك ومن يحبنون بك .. »

- « أنا حاولت الانتحار ؟ متى وكيف ؟ »

- « لقد وجدوك على باب غرفتك وكنت فاقد الرشد ، وكانت الزجاجة بجانبك .. فارغة .. أحضروك إلى الطوارئ واستدعوا المدير بمكبرات الصوت .. سمعت وجئت هنا لأجدهم يحاولون إعادة قلبك إلى الخفقان .. »

ـ « ياسلام ! وماذا تقولين في كوني هوجمت ؟ »

ـ « هوجمت ؟ »

ـ « نعم ثمـة مـن جـاء مـن خلفـى ، ولا أدرى حقًا ما حدث .. لكنه أفقدنى الوعى .. »

قالت فى ثقة وهى تربت على يدى :

ـ « (علاء) .. إن مـن يهـاجمون لا يتركون وراءهم زجاجات باربيتيورات فارغة .. »

ـ « أنا أختلف عن الآخرين .. ثم إننى ... »

ـ « ثم إن حالتك النفسية لم تكن على ما يرام فى الفـترة الماضيـة .. هـذا أمـر مـبرر ويحـدث ، لكنه لا يجعلك تنتحر .. أنا نفسى لم .. »

صحت فى عصبية :

ـ « ستحدثيننى عن براد الشاى ، ولماذا لا ينبغى أن يعلن حقيقته .. أفهم هذا .. لكن ما من براد شاى قد انتحر فى التاريخ ، ولسوف يكون بحثًـا علميًـا شائقًا بحق .. »

ثم ركلت الملاءة بمزيد من العدوانية وقلت :

- « مادمت لن تصدقينى ، فإننى أرجوك الانصراف .. شكرًا .. لقد قمت بالواجب .. أما الآن فأنا لا أجد لك نفعًا ولا ضررًا هنا .. كما ترين أنا بخير وسأكون بأفضل حال لو تكرمت مشكورة و .... »

فماذا تفعل المرأة حين يطلب منها الرجل أن ترحل حالاً ؟ بالطبع تنهض من دون كلمة وتغادر المكان .. وكنت رائق الذهن صافيه .. الأمر الذى يؤكد أننى لم أكن تحت تأثيرات الباربيتيورات هذه ، التى يظل من يتعاطاها فى حالة تلبد ذهنى كامل لمدة يوم أو يومين ..

كنت أرقد بثيابى الكاملة ، لكن أحدهم مزق أزرار قميصى ومزق الفانلة الداخلية كى يتمكن من وضع الأقطاب على صدرى .. تحسست جيبى - جيب المعطف - بحثًا عن البطاقة المشبوكة بدبوس ..

طبعًا لم تكن هناك ، وهو شىء كنت أتوقعه علـى كل حال .. لكنه يدل على شىء واحد : مهاجمى لم يحرص على قتلى ولم يهتم به .. كان بوسعه الخلاص منى بسهولة تامة .. فهل قام بهذه المناورة لمجرد الحصول على البطاقة ؟

من جديد أنا وحدى فى العراء بلا دليل واحد على أننى لست مجنونًا ..

من جديد أبدأ من جديد ....

* * *

« لو كان هذا مرضًا اسمه (الاختفاء) ، فإن التوعك فى أثناء العمل هو أول أعراضه .. »

* * *

وما لم يخطر ببالى فى تلك اللحظات هو أن الدور قد جاء علىّ أنا أيضًا كى أختفى ...

لم لا ؟ كل واحد من المختفين قد أصابه المرض

قبل لختفائه ، ومن الواضح أن هذه هى علامات قرب التلاشى .. أنا الآن متوعك ، أو هـذا ما يحسبه الجميع ..

أرقد فى الظلام شبه الدامس .. إن غرفة الطوارئ لا يدخلها النـور أبدًا ، ومن العسير أن تعرف هـل هذا صباح أم مساء .. لا مصدر للضوء إلا الباب ..

والآن أرى هذا الظل يملأ الباب بطريقة السلويت .. ها هو ذا يتقدم فى تؤدة نحو فراشى ..

لسبب ما لم أحب منظره ، ولا طريقته فى المشـى ، ولم أحب الوقفة المتصلبة التى وقفها علـى البـاب كأنما فهد يتشمم الهواء قبل الانقضاض ...

نظرت حولى فى غرفة الطوارئ .. كنت وحيدًا وكانت هناك ثلاثة أسرة خالية ، كما لم يكن هنـاك ممرضات ولا أطبـاء .. بالطبع يمكننى أن أصرخ .. لكن ماذا لو كنت واهمًا وكـان هـذا القـادم شبحًا ؟ سأضيف مزيدًا من الأوراق إلى ملف جنونى ، ولن يصدق أحد حرفًا مما أقول ..

وجلست على طرف الفراش ، واستعددت للركل أو الوثب أو الصراخ .. أى شىء سأقرره فى اللحظات التالية ..

إنه يدنو .. لا شك فى هذا .. إنه يقف أمام فراشى ..

إنه ينحنى نحوى ويمد يدًا سوداء طويلة الأصابع إلى رأسى ..

إنه ....

* * *

١٢ ـ داوا يا دكتور .. داوا ..

إنه (بودرجا) !

الممرض الكاميرونى طيب القلب ، ينحنى على فراشى ، وقد أدركت أنه أكثر ذعرًا منى ..

ـ « هل أنت متيقظ يا دكتور ؟ أنا آسف .. إن عينىّ لم تعتادا الظلام ، وقد كدت أسقط فوق فراشك .. »

ساعدته على الجلوس ، وبدا أن عينيه ألفتا الضوء نوعًا ، فقلت له :

ـ « لو كنت قد جئت لتلومنى على الانتحار فأنت تضيع وقتك .. أنا لم أفعل .. »

لشدة دهشتى قال فى ثقة :

ـ « أعرف هذا وأعرف أنك مسكين .. صادق في كل ما تقول .. لقد حدث هذا من قبل .. »

ـ « ماذا ؟ »

نظر حوله كأنما يتأكد من أن أحدًا لا يسمعه ثم قال همسًا :

ـ « حين تسترد قواك .. سنذهب إلى القرية .. إن العجوز (موكابلجاتى) يعرف كل شىء .. ولسوف يحكى لك القصة كلها .. »

وحاول النهوض فتشبثت بذراعه ملهوفًا وتساءلت :

ـ « لحظة .. هل رأيت أنت أيضًا (عدنان) و(صوفى) هذين ؟ »

مط شفته السفلى الغليظة نافيًا وقال :

ـ « لا .. لم أرهما قط ، لكنى لا أستبعد أنهما وجدا .. »

ثم أعاد النظر من حوله وقال بصوت كالفحيح :

- « لن يتركوك يا دكتور إلى أن تنسى .. نعم .. تنسى .. يجب أن تنسى وتتلاشى هذه الذكرى من عقلك تمامًا .. إن العجوز سيساعدك على هذا .. ربما سقاك شيئًا أو أطعمك شيئًا ، ولسوف تنسى سريعًا .. »

صحت محنقًا :

- « من هم ؟؟؟! »

رسم علامة يستخدمونها كثيرًا هنا لإبعاد الأرواح ، وقال :

- « الداوا يا دكتور .. الداوا .. »

لن نعود لهذا أيها الأحمق .. إن الداوا التى تتحدث عنها هذه تملأ كل بوصة من العالم ، وأنت لاترى سواها .. والداوا - لمن جاءوا متأخرًا - هى الأرواح عند الباتنتو .. والأرواح لا تحتاج إلى أن تكون لطيفة أو ودودًا .. إنها فى الغالب شريرة آثمة لاعمل لها إلا جعل حياة (بودرجا) وقومه جحيمًا ..

قلت لـه فـى صبر متوقعًا المزيد من الكـلام الفارغ :

ـ « هلا حكيت لى القصة من البداية ؟ »

★ ★ ★

يقول (بودرجا) :

« القصة فى القرية منذ سنين .. أسطورة يحكيها الأجداد لأحفـادهم ، وهـم يرتجفون ذعرًا .. لكن دلائل كثيرة تقول إنها حقيقية وإنها تحدث فعلاً ..

« فى القرية يطلقون عليهما (هو) و(هى) .. وأحيانًا يطلقون عليهما (الاثنـان) .. وفى الغالب يسمونهما (كيتومبا) و(مازومبا) .. لا أحد يعرف من أين جاءا ولا أين يذهبان ، لكنهما لا يكفان عن الظهور من وقت لآخر ، وفى كل مرة يتخذان شكلاً بشريًا ويمارسان الحياة كأنهما بشريان ، ويندمجان مع القوم تمامًا ، يأكلان ما يأكلون ويشربان ما يشربون ويتكلمان بلسانهم ..

« فى كل مرة يكون لهما وجهان جديدان واسمان جديدان .. لكن العلامة التى تدل عليهما دومًا هى قلادة ذهبية حفرت عليها بالتفريغ صورة الشمس ، ومهما اختلف وجهاهما وأينما ظهرا ، فلابد من أن ترى هذه العلامة ..

« بعد أشهر من تلك الحياة الغريبة تداهمهما أمراض البشر التى لم يتعلما كيف يتقيانها .. هنا يختفيان تمامًا .. يزيلان كل أثر لوجودهما وينسى الناس كل شىء عنهما كأنما لم يوجدا قط .. لكن بعض الناس ـ لسبب ما ـ يحتفظ بذكراهما ، ويروح يتساءل عنهما فى كل صوب ، فيتهمه الآخرون بالجنون .. ومن بقايا هذه القصص عرف العجوز (موكاباجاتى) ما عرف ..

« ما الذى يفيدان من هذه التجربة الغريبة ؟ لا أحد يعرف .. يقولون فى القرية إنهما يحبان

أن يشعرا بأنهما حيان من آن لآخر ، لأنهما ليسا كذلك .. وهما يحبان أن يجربا أكثر من ثوب وأكثر من حياة ، ولهذا يزيلان كل بقايا التجربة السابقة من الأذهان كي يبدءا من جديد ..

« إن من يصرون على عدم النسيان لحظهم العاثر ، يدفعون الثمن غاليًا .. منهم من يجن ومن يبخع نفسه .. أو - في أفضل الظروف - يلقى معاملة المجانين دون أن يستحقها .. وقد تعلم العجوز (موكابلجاتي) أن السلام الأوحد هو النسيان ، لهذا يمنحه لكل من يطلب دون مقابل .. النسيان هو خلاصك يا دكتور ، ومن دونه لن تجد يومًا واحدًا من الراحة .. »

★ ★ ★

سألت (بودرجا) وأنا لا أعرف حقًا ما أعتقده :

ـ « هل تعنى أن (أحمد عدنان) لم يوجد فى (سافارى) قط ؟ »

ـ « نعم .. كان هناك شىء يبدو كالبشر وينتحل اسم (عدنان) .. وقد رحل ، ولسبب ما أنت الوحيد الذى لم ينس .. »

ـ « والباقون فى (سافارى) صادقون ؟ لا أحد منهم يذكر شيئًا على الإطلاق ؟ »

ـ « هذا حق .. »

وانصرف (بودرجا) على وعد باللقاء صباحًا ، لكنى ظللت فى الظلام أفكر فى هذا كله ..

وكيف يجىء النوم لمن قيل له ما قيل لى ؟؟؟

وقررت فى الصباح أن أقوم ببعض التحريات المهمة .. أنا أرفض أن أصدق .. لكن كل شىء جائز فى إفريقيا ..

فقط لتمر الليلة بسلام ، وأرجو ألا يحاول أحدهم جعلى أنسى بطريقة من تلك الطرق المعروفة بالغة الحماس ..

★ ★ ★

وفى الصباح اتجهت إلى قسم الأشعة ، ولحسن الحظ لم يكن الكورى (شنج هاو ـ شيانج) قد عرف شيئًا عن محاولة انتحارى المزعومة .. رحب بى بحرارة ودعانى إلى الجلوس .. قلت له إننى راغب فى رؤية بعض أفلام الأشعة التى قمت بتنسيقها فى المرة الأخيرة ..

كالعادة نهض ليحضر لى رزمات الأشعة إياها وهو يقول لاهثًا :

ـ « لا بأس .. إن الحنطة لا تنمو إلا بعد زخة المطر الثانية ، كما يقولون فى جنوب .. »

ـ « نعم .. نعم .. مفهوم .. فى مصر نقول إن (التكرار يعلم الحمار) .. دعنى أعاونك فى هذا .. »

وجلست أمارس نفس المهمة الثقيلة ، وتوقعت ألا أجد الأشعة هذه المرة ما دام (الاثنان) يعملان بهذه الدقة .. لكنى ـ والحمد لله ـ وجدتها بعد ساعة ونصف من العمل المتواصل .. تأملتها فى الضوء ، ثم حملتها إلى المصباح وأعدت فحصها .. هذه المرة لم أكن أبحث عن المرض بل عن السلسلة الذهبية .. السلسلة التى كنت أكره أن أرى (عدنان) يلبسها ..

وفى الضوء استطعت أن أرى التفاصيل المحفورة عليها .. كانت محفورة بطريقة التفريغ فى القلادة ذاتها ، وبالتالى كان لها ظل واضح على فيلم الأشعة ..

أرى قرص الشمس ، والإشعاعات تخرج منه فى كل صوب ....

* * *

قابلت (ميشيل بيلار) الفرنسي - عاشق (صوفى) الخجول - وهو يعمل فى عيادة أمراض الغدد الصماء ، التى لم تكن مزدحمة بطبيعة الحال ..

انتحيت به جانبًا وسألته :

- « هل كانت (صوفى) تلبس سلسلة ذهبية غليظة ؟ »

احمر وجهه حنقًا وقال كأنما ينفى تهمة :

- « إن علاقتى بها لم تصل إلى هذا الحد .. وأنت تعرف أن .. »

صحت مغتاظًا :

- « لا تكن طفلاً .. يمكن لأى أعمى أن يجيب عن هذا السؤال بنعم أو لا .. »

بلل شفته بلسانه مفكرًا ، ثم قال :

- « أعتقد ... نعم .. »

طبعًا ما كان ليعرف إن كانت السلسلة تحمل نفس نقش الشمس أم لا ، لكنها في الغالب كذلك .. بقي سؤال أخير مهم .. هل تتعاطى أية عقارات يا بني ؟ عقارات مهدئة أو مخدرة أو منومة ؟

من جديد احمر وجهه خجلاً ، وقال :

- « ليس من حقك أن تسألني .. »

- « لكني أسألك .. وعليك أن تجيب لأنني لست (باركر) ولست شرطيًا »

في تردد قال :

- « إنني أتعاطى علاجًا نفسيًا .. بعض مركبات الليثيوم والميلاتونين ، ولدي وصفة طبية تسمح لي بذلك .. إن الاكتئاب يصيب الجميع .. »

تنهدت في رضا وقلت وأنا أتأهب للانصراف :

ـ « جميل .. أنت كنت تتعاطى أدوية اكتئـاب ، وأنا كنت تحت تأثير عقار هلوسة .. يمكن القول إن هذه العقارات قـد بدلـت كيميـاء عقولنـا .. جعلتنـا محصنين ضد مد النسيان الذى أصاب الجميع هنا .. »

ـ « عم تتحدث بالضبط ؟ »

ـ « سأشرح لك فيما بعد .. »

★ ★ ★

١٣ـ لا يوجد تفسير آخر ..

هل أصدق هذا ؟

لا أدرى .. القصة كلها غريبـــة مريعة .. لكن مشاكل ألا أصدق ، أكثر بكثير من مشاكل أن أصدق ..

هل أصدق قصة الكائنين الغريبين اللذين اتخـذا شخصيتين : الكائن الذكرى اتخذ صورة طبيب يمنـى اسمه (أحمد عدنان) ، وراح يتكلم العربية بطلاقـة ويمارس عمله كطبيب ، بينما الكائن الأنثوى اتخذ صورة طبيبة فرنسية سوداء اسمها (صوفـى) وراحـا يعملان لمدة أشهر وسط مستشفى من الحمقى .. هل أصدق هذا ؟ لو كانا غير بشريين فمن الـوارد أن يجيدا أشياء لا يستطيع البشر تصورها ..

كان يدرس أمراض المناعة الخلوية .. فلمـاذا ؟ لو صدقنا القصــة لقلنــا إنــه كان يحـاول فهم سر

حصار المرض لهما فى كل مرة .. كان يأمل أن يجد العلاج والوقاية التى تتيح لهما الاندماج فى عالم البشر فترة أطول ..

ثم لم يمهلهما المرض ، فقررا أن يختفيا ..

اخترقا كل العقول هنا ، وجعلا الجميع ينسون .. أراهما يجعلان (جرترود) تمسح كل ملفات الحاسب الآلى ، والممرضات يحرقن التذاكر ، و(باركر) يحرق كل أوراق التعيين الخاصة بهما .. أراهما يجعلان الممرضة الإنجليزية ترقد مريضًا إفريقيًا فى الفراش ، وتعتقد أنه هنا منذ زمن بعيد .. وإن ظلت ثغرات هنا وهناك : طبيب مصرى وآخر فرنسى كان عقلاهما تحت تأثير العقارات ، فلم يتم اختراقهما .. أشعة صدر هنا ، ومزرعة بصاق هناك .. وبطاقة تعارف فى درج ..

وهكذا كان عليهما أن يبقيا فترة أطول ، ويحاولا إزالة هذه الآثار ، ولربما اضطرا لقتل الطبيب المصرى كذلك ، بطريقة لا تثير الشبهات ... هذا هو التفسير الوحيد السهل الذى لا أجد تفسيرًا سواه ..

إنهما أقوى منى بكثير ، ولا آمل لحظة فى الانتصار عليهما .. لهذا اتخذت قرارى ..

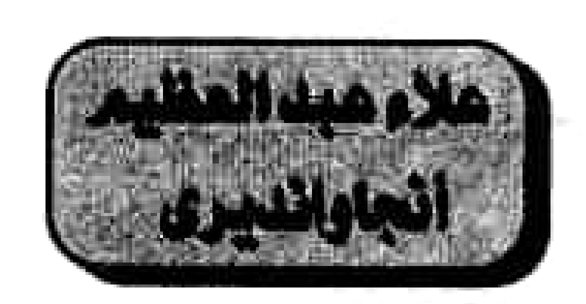
سأزور العجوز (موكاباجاتى) مع (بودرجا) ..

سأنسى كل شىء ..

لن أستطيع إقناع الفرنسى بكل ما قال (بودرجا) ، لذا سأترك أمره للظروف فيما بعد ..

لكنى أكره أن أضيع تجربة كهذه من الوجود ، لهذا طلبت من (بودرجا) أن نرجئ زيارة القرية يومًا آخر .. وقضيت اليوم كله فى غرفتى أكتب هذه القصة ، ولسوف أرسلها بالبريد حالاً على

عنوان دارنا فى مصر لتنتظرنى هناك .. عساى أقرؤها يومًا ما وأحكيها للآخرين .. عساى أفهم ما لم أفهمه اليوم ..



* * *

مقدمة وخاتمة معًا

حدث شيء غريب اليوم وجدته جديرًا بالذكر هنا ..

أذكر أنني كنت أعمل في (سافاري) صباح اليوم ، ثم مرت بي فترة ظلام عابرة لم أفهم كنهها ، لكني فتحت عيني لأجدني جالسًا في كوخ إفريقي من أكواخ الباانتو .. كنت جوار (بودرجا) وأمامنا عجوز إفريقي لابد أنه شهد حملة (حتشبسوت) إلى بلاد (بونت) .. وفي يدي كان نصف قرعة تحوي بقايا سائل ما ، وثمة مذاق مرير في فمي ..

تكلم العجوز بلغة الباانتو ، فلم أفهم حرفًا ، لكنه كان يبتسم في ثقة ..



فتحت عينى لأجدنى جالساً فى كوخ
إفريقى من أكواخ البانتو ..

وقال لى (بودرجا) مفسرًا :

ـ « يقول إنك نسيت كل شىء عنهما .. لكن تفاصيل حياتك الباقية سليمة كما هى .. فقط ستؤمن مثل الآخرين أنهما لم يوجدا قط .. »

ـ « نسيت كل شىء عن من بالضبط ؟ »

ابتسم بخبث ونظر للعجوز وقال :

ـ « لو قلت لك ، فلسوف تتذكر ثانية !! »

ثم أمسك بيدى يدعونى إلى النهوض ، وسمعت العجوز يواصل الكلام ..

ـ « ماذا يقول لك ؟ »

ـ « يقول إن من الأفضل ألا تكون قد كتبت شيئًا عن التجربة .. إنهما سيلاحقان هذه الأوراق ويدمرانها »

- « أية تجربة ؟؟ »

قال وهو يقتادنى إلى الباب حيث ضوء الشمس الباهر يعمى العيون :

- « حاول أن تنسى .. فقط ثق بى يا دكتور .. »

تمت بحمد الله

- « أية تجربة ؟؟ »

قال وهو يقتادنى إلى البـاب حيث ضوء الشـمس الباهر يعمى العيون :

- « حاول أن تنسى .. فقط ثق بى يا دكتور . »

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد لكى يظل حياً وكى يظل طبيباً

الرجل الذى لم يكُنْ

القضية هنا معقدة بعض الشيء .. إنها تلك المشكلة المألوفة : هل وُجد هذا الرجل حقاً ؟ إذن لماذا ينكرون أنه وُجد ؟ أم هو لم يوجد قط ؟ إذن لماذا تعتقد أنت وحدك ذلك ؟ هل تتخيل أنه كان موجوداً ؟ أم تتخيل أنه اختفى ؟ أم تتخيل أنهم ينكرون اختفاءه ؟

يوجد حل واحد سهل هو أنك جننت .. لكنه للأسف لايجيب عن كل علامات الاستفهام المتناثرة بسخاء هنا ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

٩٩

قرش جنيه

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع